دراسات اقتصادية

الإنسان • البيئة • التنمية
الإسراف والتبذير • الفقر والفقراء



د. زيد بن محمد الرماني

الطبعة الأولى

دار طويق للنشر والتوزيع

دراسات اقتصادية

الإنسان • البيئة • التنمية
الإسراف • التبذير • الفقر • الفقراء

إعداد وتأليف

الدكتور/ زيد بن محمد الرماني

عضو هيئة التدريس

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ح دار طويق للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الرماني، زيد بن محمد
دراسات اقتصادية - الرياض
١٥٨ص؛ ٢٤ سم
ردمك: ٨-٠٥-٨٧٨-٩٩٦٠
١- الاقتصاد - نظريات أ- العنوان
ديوي ٣٣٠ ١٤٢٣/٤١٩٦

رقم الإيداع: ١٤٢٣/١٤٢٣/٤١٩٦
ردمك: ٨-٠٥-٨٧٨-٩٩٦٠

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م

دار طويق للنشر والتوزيع
ص.ب ١٠٢٤٤٨ الرياض ١١٦٧٥
ت: ٢٤٩١٣٧٤-٢٦٠١٧٤٤-٢٤٨٦٦٨٨

بريد إليكتروني E-mail: dartwaiq @ zajil.net
موقعنا على الإنترنت www. dartwaiq.com.

مكتب القاهـرة
هاتف: ٤٥٩٤٦٧٩ محمول: ٠١٢٢٩٦٤٨٣٦
مساكن كورنيش النيل مدخل (٥) شقة (١) روض الفرج

مكتب السودان
الخرطوم - السوق العربي - هاتف: ٧٩٠١٣٤

تم الصف الإلكتروني والإخراج والتصحيح بدار طويق للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده وبعد:

إن الثورة الصناعية والعلمية التي انطلقت أساساً من الغرب، قد فتحت الأعين على حاجتين أساسيتين: الأولى تمثّلت في الحاجة إلى المواد الأولية الأساسية لحركة التصنيع التي نمت لاحقاً بوتيرة عالية، والثانية تمثلت في الحاجة إلى الأسواق الاستهلاكية لتصريف المنتجات.

ووراء هاتين الحاجتين وقف تغيّران جوهريان أصابا المحتوى الداخلي للإنسان. وقد تمثل هذان التغيران في اعتبار السعادة هي الهدف من الحياة وتحقيق أقصى متعة، والثاني في كون الأنانية والسعي لتحقيق المصلحة الشخصية والجشع تفضي إلى الانسجام والسلام.

وللأسف فإن السعادة في نظر هوبز هي التقدم المطرد دائماً من شهوة لشهوة . بل إن الأمر يصل عند لاميتري إلى حدّ تحبيذ تعاطي المخدرات حيث هي تعطي وهماً بالسعادة. وهناك دي ساد الذي يَعدُّ إشباع دوافع القسوة أمراً مشروعاً .

هذا التحوّل للمستوى الداخلي للإنسان مهم جداً وتزداد أهميته عندما تقدّم لنا اللذة بجذرها المادي كإجابة مقنعة لمعضلة الوجود الإنساني .

إن مذهبي اللذة والأنانية المفرطة شكلا المبدأين الرئيسين الذين صدرت عنهما إعادة تشكيل وبرمجة المحتوى الداخلي للإنسان وسلوكه وفق قوالب مادية خالصة .

ومن ثم ، فلا عجب أن انساق مجموعة كبيرة من الناس لاستهلاك المخدرات ، والسرقة وجرائم مختلفة الأشكال والآثار، زعماً بأنها تحقق قدراً من اللذة أو المنفعة أو السعادة .

لقد باتت الصحف ومحطات التلفزيون والقنوات الفضائية في مختلف أنحاء العالم هذه الأيام مشبعة بالتقارير

عن جرائم العنف والمخدرات وازدياد نشاطات المافيا العالمية.

والإحصاءات المذهلة عن ذلك كافية لبث الذعر فالجريمة في الواقع قضية أكثر غموضاً وأعقد تركيباً مما يبدو من عناوين الصحف المنذرة بالخطر .

ومما يجدر ملاحظته أن معظم الناس يقرنون بين الجريمة والخوف ، والجريمة والعنف، والجريمة والفساد، والجريمة والتنمية، والجريمة والفقر، والجريمة والبطالة .

وقد جرت العادة أن تؤخذ المعدلات العالمية في الجرائم كإشارة خطر تنبئي أن انهياراً اجتماعياً وشيكاً يربض خلف المنعطف .

فلا عجب أن يتنامى القلق العام المتعلق بالجريمة.

أما استهلاك المخدرات فهو ينتشر بشكل سريع في العالم ، ويزداد الاستهلاك عادة مع زيادة العرض ورخص السعر.

وللأسف فإن متعاطي المخدرات يهربون إليها كنوع من التمرد أو الهروب من الواقع أو للتعبير عن الاستسلام

والإقرار بالهزيمة النفسية وأحياناً لمجرد اقتناص وهم النشوة والسعادة .

والأخطر من ذلك أن كثيراً من الناس ينظرون الآن للمخدرات كوسيلة ترفيه وعند آخرين لا يزال استخدام المخدرات مجرد محاولة للتعويض عن السأم.

والمخدرات عموماً ذات علاقة بعدة مشاكل اجتماعية كالقلق والتفكك الأسري والجريمة والفساد .

والمخدرات هذه الأيام مصدر قلق كبير للجميع ، لأن أضرارها وآثارها فادحة .

وأشد آثار تجارة المخدرات أذىً على المجتمع هو تصعيد الجريمة . إذ تُعدُّ المتاجرة بالمخدرات هذه الأيام أحد أكبر مجالات كسب المال في العالم .

والمشكلة أن صناعة المخدرات الآن بالغة التطور والتعقيد ، فهي تستخدم وعلى نطاق واسع أنظمة اتصال بمساعدة التقنية والحواسيب .

لذا أصبحت ظاهرة انتشار المخدرات ظاهرة اجتماعية واقتصادية وسياسية ، ظاهرة تهدّد الاقتصاد على المستوى الفردي والمجتمعي والإقليمي والعالمي .

إن ما يسمّى سياسة النمو هي سياسة غايتها تشغيل الآلة ، حتى لو كانت آلة بلا فائدة أو ضارة أو مميتة . فكل ما هو تقني ممكن هو ضروري ومرغوب فيه ، على حدّ زعم روجيه جارودي .

لقد أوجدت السوق الاقتصادية الحرة الغاب الحيواني من جديد . وفي هذا الغاب يفترس الأقوياء الضعفاء فالمنشآت الكبرى تسحق الصغرى ، والعمالقة الضواري في المجتمعات المتعددة الجنسية يستولون على العالم ويفلتون من كل رقابة من الشعوب .

إن الدعاية تُشكِّل عدواناً دائماً على الإنسان الذي تخضعه لقصف من الأنباء الكاذبة وتثير فيه شهوات وهمية غير محدودة .

فليست القضية هي قضية الماضي فحسب ، قضية مطلع القرن التاسع عشر حين رسم كارل ماركس لوحة

"رقصات رأس المال الصاخبة " ساحباً تحت "دبابة النمو " الأولاد والنساء كأيدٍ عاملةٍ رخيصة " بل وقضية الحاضر أيضاً قضية القرن الحادي والعشرين ، حيث المجتمع الجرائمي المنظم ، إجرام بياقة بيضاء ، عنف مجاني ، تشرد، عمالة أطفال، بزنس الجنس، ...

إن المخدرات خطر ، والقتل جريمة ، والسرقة انحراف والبغاء والجنس وعمالة الأطفال والتشرد أشكال عديدة من واقعنا الاجتماعي المريض .

رغم ذلك فإن أخطر جريمة وأعنف انحراف يتمثل في انهيار الأخلاق وضياع القيم والتفلت من التراث الأصيل والتنكر للحضارة الرائدة .

ولا عجب ، إذن أن تضيع الأمة المنهارة أخلاقياً الخاوية قيماً وعقيدة والفارغة فكراً وثقافة والفقيرة حضارة وتقدماً ، فتلهث كالكلاب تبحث عن حضارة تلتصق بها بعد أن قضت على أغلى ما تمتلك الأمم عالية الهمم .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

إن تتبع الآيات القرآنية يظهر التأكيد على وجود علاقة موضوعية بين وقوع الظلم والفساد الاقتصادي والاجتماعي في أي مجتمع وبين هلاك ودمار واضمحلال الأمم عبر مسيرتها التاريخية.

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ ﴾ (سورة الإسراء، الآية: ١٦).

تؤكد هذه الآية تصرفات وسلوكيات بعض الناس التي تتحكم فيهم النظرة المادية النفعية ، التي تؤدي إلى تفشي الفساد والظلم وانتشار الفقر والبؤس وإهدار الأموال والطاقات ، مما يعني انهيار وتدهور الكيان الاقتصادي وتفكك البنية الاجتماعية والاقتصادية وانتشار الفساد الخلقي والانحطاط الروحي وتدمير وهلاك المجتمع .

وفي آيات قرآنية أخرى إشارات مضيئة لعلاقات وروابط موضوعية شرطية بين مستوى ودرجة استقامة

الأمة من حيث المعتقدات والقيم والأخلاق والتراث وبين درجة ووفرة الخيرات وازدهار ورخاء الأمة .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (سورة الأعراف، الآية: ٩٦).

ويقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (سورة المائدة، الآية: ٦٦).

ويقول جل شأنه : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ (سورة الرعد، الآية: ١١).

إن هذه الآيات تُؤكد معانٍ ومضامينَ حقيقية لا تُعدُّ ركائز نمو وازدهار أو تدهور واضمحلال أي مجتمع، إلا بتوفير المقدمات ومعرفة العلل والأسباب

والتمسك بالأسس والركائز المنبثقة من المحتوى الداخلي للإنسان والأمة .

فالآيات القرآنية تتحدث عن الحياة والكون والإنسان مؤكدةً على وجود علاقات ارتباطية بين الحوادث المختلفة وِفق قانون وسُنة السبب والمسبب والعلة والمعلول .

ختاماً أقول إننا مدعوون أفراداً وجماعات ومؤسسات حكومية وخاصة إلى اقتسام المسؤوليات كل من زاويته الخاصة وبقدراته المتاحة وإلى توزيع الأدوار ، بحيث نضمن النجاح والتكامل والأمن والاطمئنان ، فلا جرائم ولا سرقات ولا مخدرات بل قيم أخلاقية متينة وأخلاقيات سامية وتفعيل اجتماعي واقتصادي وسياسي شريف مستند ومستمد من عقيدتنا الصافية وتراثنا العريق وحضارتنا الأصيلة .

المؤلف :

د. زيد بن محمد الرماني

ص.ب ٣٣٦٦٢ الرياض ١١٤٥٨

المملكة العربية السعودية

الدراسة الأولى :

الإنسان - البيئة - التنمية

١- نبذة تاريخية :

بدأ الحديث عن آثار الحضارة الصناعية على البيئة في عام ١٩٦٢م، في الولايات المتحدة بعد صدور كتاب " الربيع الصامت " للروائية راشيل كارسون ، كشفت فيه عن اختفاء أنواع من الطيور نتيجة الاستخدام الكثيف للأسمدة ، وتلا هذا الحدث حملة قام بها المحامي في ذلك الوقت رالف نادر في عام ١٩٦٥م هاجم فيها مواصفات الأمان لسيارات جنرال موتورز ، وبدأ الاعتراض في أمريكا على إقامة المحطات النووية ١٩٦٩م بعد نشر مجلة رياضية واسعة الانتشار لمقال بهذا الخصوص تحت عنوان " المحطات النووية على سطح ساخن" The Nukes are in hot water ، وبدأ الشعب الأمريكي يظهر اهتماماً متزايداً بمشكلات

البيئة، ونظم يوم ٢٢ أبريل ١٩٧٠م ، و ١٩٧١م كَيومَين وطنيين للبيئة .

وفي عام ١٩٦٩م أنشأ الأمريكي ديفيد برور جمعية ((أصدقاء الأرض)) ، وأخذت طابعاً سياسياً وأصبح لها فروع في ١٥ دولة ، وتضم عدداً من القيادات الفكرية في العالم ..

ومن المعلوم أنه في عام ١٩٤٩م ، عقدت الأمم المتحدة أول مؤتمر علمي عالمي هو " المؤتمر العلمي حول الحفاظ على الموارد واستخدامها" في ليك سكس .

ولقد كان القرار الرئيسي في هذا المؤتمر ، التأكيد على إيجاد وسائل لتجنب تبديد واستنفاد الموارد الطبيعية وتطبيق الوسائل الفنية الحديثة للتوصل إلى أقصى استخدام ممكن للموارد واكتشاف مصادر جديدة . كما نوقشت الحاجة إلى الحفاظ على التربة والغابات والحيوانات البرية والأسماك.

وبعد ذلك بعقدين ، كانت الأنهار تختنق والأسماك تتعفن على الشواطئ ، والأشجار تذبل ، والمدن تعاني الهواء الملوث ذا الرائحة الكريهة ، وأصبحت البلدان

المتقدمة بشكل خاص تدرك ثمن التقدم في أول أكسيد الكربون وثاني أكسيد الكبريت ، وفي ذرات الفحم والرماد المتطايرة ..

وبدأ العالم يقلق من جراء الآثار العكسية للإنسان على بيئته ، وقررت الجمعية العامة عقد مؤتمر للأمم المتحدة حول البيئة البشرية ، في استوكهولم في حزيران (يونيو) ١٩٧٢م ، لحماية وتحسين البيئة البشرية .

وعقدت عدة مؤتمرات وندوات علمية ، كان من آخرها مؤتمر ريودي جانيرو لعام ١٩٩٢م (مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية)، والمسمى بقمّة الأرض ، وندوة الرياض : البيئة والتنمية تكامل لا تصادم ، ١٤١٣ هـ .

وقد ساهمت هذه المؤتمرات والندوات في الاتفاق على عناصر رئيسية ، منها :

١ - أن التنمية الاقتصادية والاجتماعية أمر واجب وحيوي ، لتحسين نوعية الحياة ، ولتلبية الحاجات الأساسية للإنسان .

٢- أن استمرار التنمية لن يتحقق ، ما لم تراع في برامج التنمية وخططها العلاقة المتبادلة بين مكونات أربعة :

* ما تحويه النظم البيئية المختلفة من مصادر الثروة الطبيعية.
* تخطيط السكان وتحديد أنشطتهم واحتياجاتهم .
* برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية اللازمة لتحقيق هذه الاحتياجات.
* حماية البيئة من التلوث.

٣- أن وقاية البيئة من التلوث والتدهور ، يُعدُّ أقل كلفة ، وأيسر تنفيذاً ، وأجدى نفعاً من إصلاحها فيما بعد.

٤- مراعاة الاعتبارات البيئية في جميع مراحل التخطيط ومستوياته .

٥- اعتماد مبدأ التقويم البيئي لمشروعات التنمية ، وإعداد الدراسات البيئية بما في ذلك الجوانب الاقتصادية ، كجزء من دراسات الجدوى لهذه المشروعات ، وربط الموافقة على مشرعات التنمية بضرورة الالتزام بتطبيق نتائج التقويم البيئي .

٦- إعادة النظر في أنماط الاستهلاك والإنتاج السائدة، حتى تتجاوب مع الحاجات الحقيقية للمجتمع، في إطار محدّد من الأولويات، بحيث ينسجم مع إمكانات البيئة المحلية.

٧- مراعاة المردود البيئي للمشروعات المرتبطة بالمؤسسات الخارجية، ومراعاة العوامل البيئية في تخطيط وتنفيذ هذه المشروعات.

تتعرض البيئة اليوم لمزيد من الإرهاق والاستنزاف مما أدى إلى ظهور مشكلات عديدة أخذت تهدد سلامة الحياة البشرية. وتُعدُّ مشكلة التلوث في مقدمة المشكلات البيئية لما لها من آثار صحية واجتماعية واقتصادية، ناهيك عن مشكلات أخرى ذات علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالبيئة، كمشكلة الغذاء، والمشكلة السكانية، ومشكلة الطاقة.

إننا اليوم أمام خيارين، إما أن نتعايش مع البيئة ونحافظ عليها، وإما أن نفرط في استنزافها. فالمبالغة بقطع الأشجار تؤدي إلى انجراف التربة وتصحرها. والمبالغة في صيد الأسماك تؤدي إلى هلاكها وقلة مورد مهم في غذائنا

والهدر في استهلاك الحياة يؤدي إلى حرمان الآخرين منها ، والإكثار من استعمال الطاقة المولدة للغازات تضر بصحة البشرية كلها ، وإلقاؤنا للنفايات المكشوفة على قارعة الطريق تنعكس علينا بمزيد من الأمراض الوبائية .

إن البيئة بقدر ما نعطيها نوعاً وكمّاً ، ترده إلينا سلباً أو ايجاباً . من هنا ، كانت المحافظة على البيئة محافظة على حياتنا البشرية.



٢- الإنسان والبيئة :

مرت العلاقة بين الإنسان والبيئة بعدة مراحل ، بعضها ايجابي يتلاءم مع التوازن الدقيق الذي خلق الله عناصر البيئة ومكوناتها عليه ، وبعضها سلبي .

هذه المراحل بدأت بعلاقة انسجام متبادل بين الإنسان وبيئته ، يقوم أساسها إلى تسخير الله سبحانه لجميع مكونات البيئة للإنسان ، واستعمار الإنسان لهذه المكونات وإداراتها دون العبث بها ، والإخلال بتوازنها ، أو الإسراف في استهلاك ثرواتها وكنوزها .

ولذلك ، انتقلت موارد البيئة إلى الأجيال التي جاءت بعدها ، وهي سليمة من الناحيتين ، الكمية والنوعية ، واستمر عطاؤها وإمداد الإنسان بما يحتاج إليه لاستمرارية حياته وحياة الكائنات الحية الأخرى .

ثم تلتها مراحل أخرى خطيرة على البيئة ، وصلت ذروتها في نهاية القرن العشرين .

هذه المرحلة أسبابها تتمثل في ضيق نظرة الإنسان لمستقبل عناصر البيئة وجهله لكثير من السنن التي فطر الله عليها البيئة ومكوناتها ، والربط المتزن بين عناصرها المختلفة .

كما أن تصرفات الإنسان وأنانيته وحبه لذاته ورفاهيته دون الإحساس بشعور من حوله وما يحيط به من مكونات وعناصر بيئية ، كان لها دور سلبي في تدهور البيئة ، يقول موريس سترونج المدير التنفيذي لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة : " إن المخاطر الرئيسية للدمار البيئي على نطاق عالمي وكذلك الضغوط العظمى على المصادر الطبيعية هي النشاطات الاقتصادية للبلدان الغنية ، والشهوات الاستهلاكية المتفجرة لدى سكانها... " .

ثم ، تجددت مظاهر ومشكلات ، مع الزمن ، وانكشفت مشكلات أخرى لم يعرفها الإنسان من قبل ، وكانت أكثر خطورة وأبعادها السلبية شملت جميع الكرة الأرضية .

فبعد أن كانت هذه المظاهر والمشكلات محلية ، تهتم ببيئة صغيرة في بقعة من بقاع الأرض الواسعة ، تحولت هذه المظاهر إلى مشكلات إقليمية ، وبعضها انعكست سلبياته على المستوى العالمي .

لذلك ، أصبحت هذه المظاهر والمشكلات البيئية متجددة ، كلما انتهت مشكلة وعُرفت أسبابها وطرق علاجها ، ظهرت مشكلة أخرى أوسع بعداً وأكثر ضرراً .

في مطلع الثمانينات ، كان هناك تضييق للمشكلات البيئية ، يستند إلى مجال تأثير هذه المشكلات ، ويفرق بين المشكلات البيئية العالمية (الكونية) ، والمشكلات البيئية الإقليمية (المحلية).

فالمشكلات البيئية العالمية (الكونية) ، هي تلك المشكلات التي تحدث بناء على بعض التدخلات التي تظهر في منطقة أو عدد قليل من المناطق ، ولكن يمتد تأثيرها إلى الإضرار بنظام بيئي كوني مثل : مشكلة الدفيئة (ارتفاع درجة حرارة الغلاف الجوي) ، وتآكل طبقة الأوزون ، كما أنها تنجم عن التغيرات التي تحدث بشكل تراكمي من

جراء تكرار التدخلات البشرية السلبية في الأنظمة البيئية وانتشارها في أجزاء كبيرة من العالم ، مثل : مشكلة التصحر ، وقطع الغابات والنمو الحضري العشوائي .

أما المشكلات البيئية الإقليمية (المحلية) ، فهي تلك المشكلات التي تقتصر آثارها على الإضرار بالأنظمة البيئية في مكان أو إقليم محدود ، وتُعدُّ مشكلات تلوث المياه أو الهواء وتجريف التربة في بلد معين مشكلات محلية ، بينما تُعدُّ مشكلات الأمطار الحمضية أو تلوث البحار الإقليمية مشكلات إقليمية .

إن هذه المشكلات والقضايا البيئية المتجددة والمتغيرة ، تتطلب من الإنسان ، بل تلزمه مجابهتها وحلها أيضاً بصورة متجددة ، لكي يواكب الإنسان الأخطار التي تترتب على وجودها ، ويحاول منع وقوع قضايا أخرى جديدة .

إن قضايا البيئة ، أمر مصيري للكون ، فهي في عمقها الفكري تفوق كثيراً موضوع التنمية ، ومخاطر التنمية فالقضية الحقيقية قضية فكرية تتصل بضرورة إعادة النظر في نوع العلاقة بين الإنسان والبيئة (الطبيعة) على الإنسان ،

إلى سيطرة الإنسان على البيئة (الطبيعة)، وإيجاد علاقة ذات صيغة جديدة ، تقوم على الحوار والتعاون المشترك . فالمشكلة البيئية ، مهما تعددت مجالاتها ومهما كانت درجة خطورتها فهي مشكلة سلوكية في المقام الأول، ومن ثم إذا ما أردنا مواجهة مشكلات البيئة فإن الأمر يستلزم بداءة تعديل سلوكي للإنسان المتعامل مع البيئة ، والمتفاعل معها، بحيث يتبنى قيماً بيئية إيجابية ، وسلوكيات تستهدف حماية البيئة والمحافظة عليها . إذ للمحافظة على البيئة ومواردها الطبيعية من الناحيتين الكمية والنوعية أهمية بالغة مرتبطة بحياة الإنسان والكائنات الحية الأخرى ، حيث إن هناك علاقة طردية بين صحة الإنسان وسلامته ، وصحة البيئة وسلامتها .

يقول يوثانت : " ليس بودي أن أهول الأمر ، ولكن النتيجة الوحيدة التي أستطيع استخلاصها من المعلومات التي في حوزتي هي أنه لا يكاد يبقى عشر سنوات أمام الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة كي تنسى خصومتها القديمة وتتضامن من أجل إنقاذ البيئة...



٣- تلوث البيئة :

لقد كان الاهتمام في الماضي بالبيئة وتلوثها " Environmental pollution" ينصب أساساً على آثاره ومشكلاته الصحية ، باعتبار أن تلوث البيئة يتسبب في كثير من الأمراض ، مما جعل دائرة البحث تنحصر في المهتمين بالعلوم الطبية فقط ، إلا أن الحاجة قد دعت مؤخراً إلى التقويم الكمي والمالي والجوانب الاقتصادية الأخرى المتعلقة بمخاطر تلوث البيئة التي تصاحب استخدام الموارد الاقتصادية واحتساب تكاليف التخلص من النفايات الناتجة عن المصانع والمزارع والأسواق والمساكن ، والتي تلوث الهواء والماء والتربة .

ومما يزيد آثار التلوث البيئي انتشارها وعدم انحصارها في مكان واحد ، مما يجعلها تمتد إلى آخرين سواء كانوا أفراداً أو مجتمعاً أو دولاً أو العالم بأسره . فالإنسان لا يلوث هواءه الخاص به ، أو مياهه ، أو تربته ، إنما أيضاً هواء ومياه وتربة الآخرين .

وقديماً أشار ابن خلدون رحمه الله في مقدمته المشهورة إلى التلوث وضرورة حماية البيئة ، حيث قال : " إن الهواء إذا كان راكداً خبيثاً أو مجاوراً للمياه الفاسدة ، أو لمنافع متعفنة ، أو لمروج خبيثة ، أسرع إليها العفن من مجاورتها ، فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة ، وهذه مشاهدة في المدن التي لم يراع فيها طيب الهواء ، وهي كثيرة الأمراض في الغالب..." .

وقد جاء في تقرير لأكاديمية العلوم الوطنية الأمريكية عام ١٩٦٦م ، ما يلي : ((لقد حل الوقت الذي لا يجوز فيه للإنسان أن يمضي في استعمال الأرض والبحر والهواء كأنها سلة قمامة)).

وفي عام ١٩٩١م ، وفي أريزونا في سبتمبر ، بدأ مشروع المحيط الحيوي " الثاني" بدخول ثمانية علماء ، في صوبة كبيرة جداً، تمّ فيها محاكاة البيئة الموجودة في الأرض، ووضعت بها آلاف الأنواع الحية ، ويتم فيها إعادة تطوير استخدام كل الموارد مع عدم التعرض إلى تلوث صناعي ، والهدف من هذا المشروع دراسة "المعدلات

الطبيعية" للتلوث في المحيط الحيوي ، في غياب الأنشطة الحادة وغير الرشيدة للبشر ، لمعالجة مشكلات المحيط الحيوي الأول ((الأرض)) ..

يقول ماكفارلين برنيست : (ثمة ثلاثة لا مناص منها : خفض الحرب إلى أدنى حد مستطاع ، إقرار سكان الأرض على مستوى مقبول ، منع التدمير المطرد لموارد الأرض التي لا تعوض...).

إن التقنية المعاصرة أدت ولا تزال تؤدي إلى تلوث هائل لمختلف بيئات الأرض تلوثاً كيميائياً ، وحرارياً ، وإشعاعياً ، عن طريق ما قذفته المصانع وأجهزت التقنيات الحديثة من كميات هائلة من الإشعاع والحرارة والغازات والنفايات السامة ، والصلبة ، إلى الهواء وإلى مياه الأنهار والبحيرات والبحار ، وإلى تربة الأرض .

لذا ، برزت في الدول المتقدمة توجهات عديدة ، لإعادة تحميل الدول النامية بأعباء مكافحة التلوث ، مثل رغبة دول المجموعة الأوروبية في فرض ضريبة على إداراتها النفطية

من دول مجلس التعاون ، وتخصيص عائدها للمحافظة على البيئة .

لهذا فالعالم العربي والتنمية العربية بالذات تواجه تحديات تضع في الاعتبار برنامجاً عملياً لصيانة البيئة ، من خلال تحسين استغلال البيئة سواء الزراعية أو مصادر المياه وتشجيع الصناعات الريفية التي تحد من الهجرة إلى المدينة .

يقول ليونارد سلك :((ينبغي على السياسة الاقتصادية أن تركز مستقبلاً على إنهاء الإهدار أو التبذير ، والحفاظ على مصادر الثروة التي لا تتجدّد وعلى حماية الجو والمحيطات من التلوث وعلى إحداث تغيّر في عادات الاستهلاك...)) .

ويقول جنيفر ميك في كتابه ((التلوث في العمل والمدرسة)) : " لا أعتقد أن التلوث كمشكلة متزايدة في هذا القرن ، يخرج عن إطار الفهم القائل بأن لكل جيل من البشر تصورهم الشخصي " بأن زمنهم زمن خاص " ،... ومشكلة التلوث هي واحدة من إفرازات التحول إلى عصر العلم والتقنية... " .

إن إحدى القضايا الاجتماعية الرئيسية في الثمانينات هي تلوث البيئة . وتلوث البيئة هو إلى حد كبير مشكلة اقتصادية . وفي سبيل الوقاية من هذا التلوث ومعالجة أخطاره، قدم العلماء الحلول والوسائل الكفيلة لمواجهة مشكلة تلّوث البيئة ، ومن ذلك التربية البيئية ، والتوعية البيئية ، والتخطيط البيئي السليم ، والتنبؤ البيئي المستقبلي ، ذلك أنه من الغباء القضاء على البيئة ومواردها ، على حدّ قول باري كومونر .



٤- التوعية والتربية البيئة :

لقد اهتم الإنسان منذ القدم بدراسة مقومات بيئته وأثرها في حياته واستخدم في ذلك تفسيرات كان بعضها يعتمد على الخرافة وبعضها الآخر يعتمد على دراسة علمية سلمية. وقد شعر الإنسان منذ آلاف السنين بأهمية مصادر بيئته وضرورة المحافظة على هذه المصادر .

إن مهمة المؤسسات الإعلامية والثقافية والتعليمية لا بد وأن تشمل نشر الوعي والمعرفة حول عناصر البيئة وأهمية المحافظة عليها ، وكذلك طرق التعامل مع البيئة .

فالمحافظة على مصادر البيئة تعني حسن استغلال كنوز الأرض التي وهبها الله لنا ، وليس المراد عملية ادخار للمستقبل، وبصورة عامة تعني المحافظة عدم الإسراف عند استعمال مصادر البيئة الطبيعية .

إن التربية البيئية هي ارتقاء بالإنسان ، لاكتساب الوعي ، والاهتمام بالبيئة ، وبالمشكلات المرتبطة بها ، واكتساب المعرفة ، والاتجاهات والميول ، والمبادرة للعمل

على حل المشكلات الحالية، ومنع ظهور مشكلات جديدة أخرى .

التربية البيئية هي جانب من التربية ، يساعد الناس على العيش بسلام على كوكب الأرض . وتستند مبررات التربية البيئية إلى خصائص كل من الإنسان والبيئة من ناحية، وإلى تطور العلاقات بين الإنسان والبيئة من ناحية أخرى.

إن من الأسباب التي تدعو إلى الاهتمام بالبيئة ، ما يلي :

أولاً : أن البيئة (الطبيعية) تقوم بالدور الرئيسي في معاونة الإنسان على إنتاج السلع المادية اللازمة لإشباع حاجاته المتزايدة ؛ ولذلك فمن المهم صيانة هذه الموارد الطبيعية حتى يمكن مواصلة دورها بفاعلية وكفاءة .

ثانياً : أن الإنسان يحتاج إلى ظروف بيئية معينة ، حتى يستطيع أن ينمي مواهبه على أحسن وجه وينعم بحياة جيدة، ونفسية سليمة .

ومن المبادئ التي يجب أخذها في الاعتبار عند القيام بالتوعية والتربية البيئية ، ما يلي :

أولاً : تعقد العلاقات بين الإنسان والبيئة ، وتشابكها إلى أبعد الحدود ، وتعرض هذه العلاقات للتغيير والتبديل.

ثانياً: أن كل أو معظم التغيرات التي يحدثها الإنسان في كوكب الأرض الذي يعيش عليه هي ظواهر بيئية ، لا يمكن فهمها إلا في ضوء العلاقة الثلاثية القائمة بين الإنسان والمجتمع والبيئة

ثالثاً : أن الإنسان يوجد في البيئة ، كجزء منها ، يؤثر فيها، ويتأثر بها .

رابعاً : أن تأثير البيئة في الحياة الاجتماعية ، سواء في المنتديات الثقافية أو الاجتماعية ، لا يعني أن هذا التأثير يصل إلى حد تشكيل حياة الناس كلها ، وتوجيهها في اتجاه مرسوم .

خامساً : ضرورة التعرف على تأثير العوامل البيئية على التنظيم الاجتماعي ، وبالتالي على البناء الاجتماعي ، وعملية التكيف في المجتمع .

لقد أصبحت الحاجة إلى الوعي البيئي قضية سياسية مهمة في المجتمعات الصناعية المتقدمة ، فالحركة الخضراء الجديدة أو ما يُسمى بحزب أو جمعية السلام الخضر" Green peace " وخاصة في ألمانيا قد لعبت دوراً مهماً في الانتخابات الأوروبية الأخيرة .

لقد أصبحت التوعية والتربية البيئية تعي أهمية التوازن البيئي ، التوازن بين الكائنات الحية وعلى قمتها الإنسان من جهة، وبين العناصر الطبيعية من جهة أخرى ؛ ذلك لأن تجديد الموارد الطبيعية لا يتمّ إلا إذا توافرت الشروط اللازمة لضمان توازن البيئة التي تتواجد فيها هذه الموارد . بحيث نعيد النظر في القيم الحديثة التي رافقت المجتمع الاستهلاكي ، وتحتمل نظرة جديدة تراعي كميات الموارد الطبيعية ، على أساس أن للأرض طاقة استيعابية معينة .

وتولي التوعية والتربية البيئية أهمية كبيرة للتخطيط البيئي ؛ وذلك لأنه أسلوب علمي منظم يهدف للتوصل إلى أفضل الوسائل لاستغلال موارد البيئة المتاحة ، والقدرات البشرية في تكامل وتناسق.

ويقوم التخطيط البيئي على مبادئ ثلاثة ، هي :

أولاً : شمولية التخطيط البيئي للبيئة بمفهومها التكاملي (الطبيعي ، والاجتماعي ، والثقافي) كمّاً ونوعاً.

ثانياً : أن يكون التخطيط البيئي طويل المدى ، يحده منظور مستقبلي ، ينظر إلى الأفق البعيد .

ثالثاً : دمج التخطيط البيئي مع التخطيط الاقتصادي والاجتماعي .

إن التوعية والتربية البيئية تحتل أهمية كبرى ضمن وسائل وأساليب مواجهة المشكلات البيئية والوقاية منها .



٥- البيئة والتنمية :

لقد بدأت الكتابات التنموية الجديدة تؤكد أن البيئة ليست وسيلة لتحقيق التنمية بل هي غاية في حد ذاتها ، ولربما كانت التنمية في النهاية السعي من أجل تطوير وإغناء البيئة . إن التنمية لكي تكون تنمية ناجحة ، لا بد أن تكون منسجمة مع البيئة . هذه التنمية المنسجمة مع شروط وضوابط البيئة هي التنمية المستديمة .

إن التنمية المستديمة هي خطوة ضرورية لتجاوز التدهور البيئي والمأزق التنموي العميق في العالم المعاصر . إذ أن مستقبل العالم أصبح مرتبطاً بالتخطيط لتنمية دائمة ومتواصلة ومتجددة تلبي احتياجات الحاضر دون أن تضحي بمتطلبات المستقبل .

التنمية المستديمة هي التنمية التي تنطلق من هذه المبادئ وتحقق التوازن بين التنمية والبيئة ، وبين الإنتاج والاستهلاك ، وبين قدرة البيئة على العطاء وقدرتها على التحمل .

إن التحدي أمام المجتمع الدولي الآن هو كيف يمكن تحقيق تنمية اقتصادية ورفاهية اجتماعية بأقل قدر من استهلاك الموارد الطبيعية وبالحد الأدنى من التلوث والإضرار بالبيئة . هذا هو جوهر التنمية المستديمة التي تم إقرارها في قمة الأرض عام ١٩٩٢م ، التي تحولت إلى واحدة من أهم الإضافات الجديدة والجادة للفكر التنموي العالمي .

لقد أصبحت التنمية المستديمة تعني أموراً مختلفة ، وذلك اعتماداً على ما يعتقد أنه العنصر المهم في تحديد تعريف لِلمفهوم. فهناك مَنْ يركّز على أن عنصر البيئة هو أهم عناصر التنمية المستديمة ، حيث كانت البيئة والاعتبارات البيئية مهملة ليس في التخطيط التنموي فحسب ، بل وفي التخطيط الاقتصادي والاجتماعي . وهناك مَنْ يركّز على عنصر الموارد الطبيعية وكيفية إدارتها وتعظيم المنفعة من استخدامها والأساليب الممكنة للإبقاء والمحافظة عليها . وهناك مَنْ يعتقد أن جوهر التنمية المستديمة هو التفكير في المستقبل ، وفي مصير الأجيال القادمة. وهناك

مَنْ يعتقد أن جوهر التنمية المستديمة هو عنصر المشاركة في إدارة التنمية وخاصة على الصعيد المحلي ، حيث إن التنمية المستديمة هي أساساً التنمية التي تتم على الصعيد المحلي . وهناك مَنْ يرى أن هدف التنمية المستديمة المباشر هو القضاء على الفقر ، الذي يزداد كمّاً ونوعاً . وهناك مَنْ يعتبر الطاقة بعداً مهماً من أبعاد التنمية المستديمة.

هذه أهم الاستخدامات المتعددة للتنمية المستديمة والتي تبرز أهم السمات المميزة للتنمية المستديمة، على النحو التالي :

(١) التنمية المستديمة تختلف عن أشكال التنمية الأخرى، في كونها أشدّ تداخلاً وأكثر تعقيداً وخاصة فيما يتعلق بما هو طبيعي وما هو اجتماعي في التنمية.

(٢) التنمية المستديمة تتوجه أساساً إلى تلبية متطلبات واحتياجات أكثر الشرائح فقراً في المجتمع، وتسعى إلى الحد من تفاقم ظاهرة الفقر في العالم.

(٣) للتنمية المستديمة بُعْدٌ نوعي يتعلق بتطوير الجوانب الروحية، والثقافية، والإبقاء على الخصوصية الحضارية للمجتمعات.

(٤) لا يمكن في حالة التنمية المستديمة فصل عناصرها وقياس مؤشراتها، لشدة تداخل الأبعاد الكمية والنوعية.

إن العالم بحاجة إلى تنمية تستند إلى مبدأ أن الموارد الطبيعية محدودة وهي ملك للجميع بالتساوي، وهي ملك للمستقبل بقدر ما هي للحاضر، وهي على كل الأحوال ليست ملكاً للإنسان وحده، وإنما هي أيضاً من حق كل الكائنات والمخلوقات.

إن العالم بحاجة إلى تغيير الاتجاهات البيئية وتقويم النظم الاقتصادية، وتعديل الأنماط البيئية والاقتصادية والاجتماعية، بما يحقق التنمية الاقتصادية الملائمة، ويشبع الحاجات الإنسانية الأساسية، ويحافظ على سلامة البيئة من خلال اعتماد تقويم دقيق لاعتبارات البيئة، حفاظاً على الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي والبيئي .ذلك أن

توفير الاستقرار الاقتصادي لا يتم إلا عن طريق تحقيق مبدأ التنمية المستديمة.

وتحسن الإشارة إلى أن للتنميـة المستديمة ثلاثـة أبعـاد رئيسية متكاملة : بيئية واجتماعية واقتصادية. فثراء البشـرية ونموها الاقتصادي يعتمد على موارد البيئـة التي تُعدُّ كافية لحاجات الكائنات الحية، إذا ما استخدمت بفاعلية ؛ لأن النمو الاقتصادي ورعاية البيئة مترابطان . كما أن مفتاح التنمية يقع في مشاركة الناس وتنظيمهم وتعليمهم فالتنمية ينبغي أن تكون ملائمة للبيئة ومواردها، وكذلك للثقافة والتاريخ والنظم الاجتماعية في الموقع الذي تجرى فيه.

الاستدامة مبـدأ يقـول بأن النمـو الاقتصـادي والتطـور لابد أن يقوما ويحافظ عليهما ضمن الحدود البيئية، من خلال العلاقات المتبادلة بين الناس وأفعالهم وبين المحيط الحيوي والسنن التي تحكمه.

والاستدامة مبدأ يعـني تحقيـق مسـتوى معقـول مـن الرخاء والأمن لجميع أفـراد المجتمـع بـين الـدول الناميـة. ولذلك يُعدّ أمراً أساسياً لحماية التوازن البيئي.

إن كل فرد مطالب بالاعتدال في كل شي بحيث لا يسرف في استهلاك مصادر الطاقة وغيرها من مقومات الحياة، إذ أنه سبحانه لا يحب المسرفين . وفي ذلك حفظ للتوازن البيئي يقول تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (سورة الأعراف، الآية: ٥٦).

ويقول سبحانه : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (سورة الروم، الآية: ٤١).

وتدبر هذه الآيات يفهم منه تجنب الإغراق في الترف والسرف والسفه والتبذير الذي يؤدي إلى الفساد والإفساد في الأرض، والبحر، والجو، وفي هذا دعوة إلى المحافظة على البيئة والتنمية.



٦- المملكة وقضايا البيئة :

سجل العقد الماضي اهتماماً دولياً بشؤون البيئة وحمايتها وخاصة في السنوات الأخيرة، حيث جاءت قضايا إدارة الموارد البيئية، وحمايتها وتنميتها من الأولويات في سياسات كثير من الدول ومجالات تعاونها.

وفي الوقت الحاضر تشهد المملكة العربية السعودية وعياً ثقافياً وسياسياً وبيئياً، يعطي الموارد الطبيعية والبيئية اهتماماً بالغاً في الحماية والحفاظ عليها، بحيث أصبح هذا الاتجاه له تأثير مباشر على التفكير ونمط الحياة بين مواطنيها. وهو توجه يتفق والتراث الحضاري وتسعى إليه خطط التنمية الوطنية في المملكة، فهي رائدة إدراج مبادئ الوعي بالبيئة.

لقد حرصت المملكة في جميع خططها التنموية على أن تؤكد على اهتمامها بالبيئة والتنمية من خلال إسهام مصلحة الأرصاد وحماية البيئة في النشاط الاقتصادي للمملكة، بتوفير المعلومات وتقديم المشورة

فيما يتعلق بحماية البيئة، كما في خطة التنمية الثانية ١٣٩٥/١٤٠٠هـ ومن خلال توفير وتطوير خدمات بيئية متكاملة، كما في خطة التنمية الثالثة ١٤٠٠ /١٤٠٥ هـ، ومن خلال دعم مساهمات الأفراد والمؤسسات في المحافظة على البيئة .كما في خطة التنمية الرابعة ١٤٠٥/١٤١٠ هـ. وقد تضمن الأساس الإستراتيجي السابع لخطة التنمية الخامسة ١٤١٠/١٤١٥ هـ، والأساس الإستراتيجي العاشر لخطة التنمية السادسة ١٤١٥/١٤٢٠هـ الحث على الاستمرار في برامج المحافظة على البيئة وحمايتها وتطويرها ومنع التلوث عنها وما زالت الخطط التنموية السعودية الخمسية على هذا النهج في حماية البيئة والتنمية المستديمة.

وقد تزامنت التطورات الدولية في مجال المحافظة على البيئة خلال العقدين الماضيين مع اعتماد منهج التخطيط التنموي في المملكة، وواكبت المملكة هذه التطورات ولعل أهم ما تحقق في هذا المجال ما يلي :

أولاً: إدخال الاعتبارات البيئية في اختيار مواقع أهم المشروعات الصناعية في المملكة، وفي تصميم هذه

المشروعات وتشغيلها، فالمجتمعات الصناعية في الجبيل وينبع تُعدُّ مثلاً لتكامل الاعتبارات البيئية التنموية.

ثانيـــاً : إنشاء الهياكل التنظيمية والتنفيذية لأجهزة حماية البيئة والمحافظة عليها، مثل : مصلحة الأرصاد وحماية البيئة عام ١٣٨٦ هـ والهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها عام ١٤٠٦هـ والهياكل التخطيطية والتنسيقية، مثل : اللجنة الوزارية للبيئة، ولجنة تنسيق حماية البيئة.

ثالثاً : إصدار مقاييس وطنية لحماية البيئة، والتزام معظم المشروعات التنموية بها.

رابعــاً: إصدار المواصفات القياسية لتحديد انبعاث الملوثات من السيارات وتطبيقها على جميع السيارات المستوردة إلى المملكة.

خامســاً: إنشاء المحميات الطبيعية للأحياء الفطرية، والمتنزهات الوطنية، ومسيّجات المراعي للمحافظة على التنوع الإحيائي والبيئي.

سادساً : تنامي دور المملكة إلى الصعيد الإقليمي في مجال البيئة ومنظمات البيئة البحرية لكل من البحر الأحمر والخليج العربي، وفي مجالس الوزراء المسؤولين عن شؤون البيئة في كل من مجلس التعاون والجامعة العربية.

لقد صاحب التوسع الاقتصادي في المملكة، وتحقيق معدلات في التنمية العمرانية، حدوث بعض الإضرار بالموارد الطبيعية والبيئة لم يسبق لها مثيل، مثل : التلوث، والأخطار الصحية الناجمة عن المعالجة غير الملائمة لنفايات النشاطات الصناعية والزراعية والحضرية، وتلوث الهواء في المدن الكبرى والمناطق الصناعية والتصحر، والأخطار التي تواجه الحياة الفطرية علاوة على نقص احتياطي المياه الجوفية وتدني مستويات جودتها.

ونتيجة لهذه الأضرار وسلبياتها على التنمية الاقتصادية فقد أنشأت الدولة مصلحة الأرصاد وحماية البيئة، والهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها، والهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض.

فعلى سبيل المثال، تقوم الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض في إطار سعيها لتنمية متكاملة متوازنة حضرياً واقتصادياً، وبيئياً، على برنامج متكامل لإدارة البيئة وحمايتها في مدينة الرياض، وتولي الهيئة العليا الاعتبارات البيئية اهتماماً كبيراً في تخطيط وتصميم المشروعات التي تقوم بها، مثل : تطوير وادي حنيفة، وخفض منسوب المياه الأرضية، ومشروع حماية الحياة الفطرية، واستكمال شبكات الصرف، وترشيد استهلاك مياه الري، ودراسة أسباب تلوث الهواء، وتلوث المياه في مدينة الرياض، ودراسة أساليب التخلص من النفايات الصلبة.

ولا زالت الحاجة ملحة لوضع الحلول التي تساعد في الحد من العقبات والمعوقات المتعلقة بحماية البيئة، والحفاظ عليها من التدهور والاستنزاف والتلوث.



٧- صناعة البيئة :

أصبحت مشكلة البيئة تفرض نفسها في مقدمة مشكلات العالم . فكلما زادت درجة التطور زاد الإنسان من إفساد البيئة التي يعيش فيها.

لقد كانت المرة الأولى التي أتيح فيها لكائن بشري أن يرى الأرض من الفضاء الخارجي في منتصف القرن العشرين ، حيث وصفها بأنها كرة صغيرة تبدو هشة وخالية من العمران، تغطيها السحب ، وتحتل المياه معظم مساحتها ، ولقد اتضح لنا عجز البشر عن إدارة أحوال هذه الكرة. إنها حقيقة لا مهرب من مواجهتها.

جاء ذلك في تقرير اللجنة العالمية للبيئة والتنمية الذي أصدر في عام ١٩٨٧ م ، تحت عنوان " مستقبلنا المشترك " حيث أكّد أنه لا مجال للعزلة في عالم اليوم ، فالعلاقات بين الدول تتزايد وتتعقد ، بحيث أصبحت إدارة الشؤون العالمية في حاجة إلى التطور المستمر لمسايرة النمو في تلك العلاقات.

ولقد تحقق بعض التقدم في هذا المجال استجابة لذلك التقرير، فظهرت خلال السنوات الماضية مبادرات إقليمية ومحلية لمعالجة بعض أحوال البيئة ومشاكلها، مثل تلوث الهواء، وسياسات استغلال الموارد المائية والتخلص من النفايات، كما ظهرت استجابة عالمية، تمثلت في معاهدات وبرامج للتعاون الدولي من أجل حماية طبقة الأوزون، وبداية التباحث لوضع برامج دولية لدراسة أحوال المناخ.

هذه علامات مشجعة، ولكن ليست كافية لمواجهة التدهور المتسارع في أحوال البيئة العالمية، فثمة تقديرات تشير إلى أن التوسع في الأنشطة البشرية مستمر في الضغط الشديد على قدرات وإمكانات الأنظمة البيئية والموارد الطبيعية في العالم، حتى إن بعض هذه الأنظمة والموارد، مثل : الوقود الأحفوري، وطبقة التربة الزراعية الخصبة، والتنوع الحيوي يتعرض للإستنزاف الشديد.

إذن : كيف السبيل إلى صون ودعم التغيرات السريعة والحادة ؟ وهل نكتفي بمجرد مقاومة هذه

التغيرات؟ أم تتعداها جهودنا إلى مزيد من الخطط الشاملة والطويلة الأجل للتعاون مع مختلف قضايا البيئة ؟.

علامات استفهام عديدة لا تزال قائمة، يدور حولها جدل كثير يشارك فيه العلماء والهيئات الرسمية والأهلية المهتمة بشؤون البيئة. ولعله من المفيد أن نستمع إلى وجهة نظر ذات طابع مختلف.

تقول آن تايلور في كتابها " كيف نختار مستقبلنا " : "إننا نعيش في عالم منكمش أو متقلص بالنسبة لما كان عليه العالم قبل أن تطأ قدما رائد الفضاء الأمريكي " نيل آرمسترونج " سطح القمر. لقد أصبح العالم قرية كبيرة بعد ثورة الاتصالات وثورة المعلومات وهكذا يمكن القول إن البيئة التي يعيش فيها البشر ليست مجموعة من الأجزاء المتباعدة، أو تتلاشى فيه الخطط المرسومة على الخرائط كحدود دولية.

وتذهب آن تايلور إلى أن التركيب الحالي للاقتصاد العالمي لا يوفر الشروط الضرورية لتنمية ثابتة الأركان.

ويرى تشامبرز أن حل مشكلة تكاثر السكان المتفاقمة وما ينجم عنها من ضغط على موارد البيئة المحدودة، يكمن في طرق متعددة الاتجاهات، منها التخطيط العائلي بهدف الحد من التكاثر السكاني وترشيد استغلال الموارد وتحقيق تنمية اقتصادية حكيمة، ويعتقد تشامبرز أن الفشل في معالجة قضايا البيئة في الماضي، إنما يعود إلى ارتباط الحلول بالمسائل المادية، وكذلك ارتباطها بقيم الأغنياء دون قيم الفقراء؛ ولذا يقترح أن تتركز العناية على حاجات ورغبات الفقراء والنساء الريفيات...".

أما إنجل فيرى أنه من الضروري تشجيع إقامة روابط وثيقة بين علماء البيئة وصانعي السياسة البيئية من جهة، والكُتَّاب والمثقفين من جهة أخرى، لأن هؤلاء بكتاباتهم وتوجيههم يستطيعون كشف الأسباب الأيدلوجية الكامنة وراء فشل الإنسان في تطوير قيم أخلاقية بيئية بناءة تؤدي إلى حماية البيئة، كما أن بإمكانهم التأثير في الناس وحضهم على اتخاذ مواقف أخلاقية إيجابية لصالح الطبيعة ويأسف إنجل، لأن بعض التقاليد الغربية تشجع على تدمير

البيئة وكأنّ مهمة الإنسانية قهر الطبيعة وتسخيرها لصالح البشر..." .

ويبيّن بت أن فشل التنبؤ بالمستقبل يعود إلى أسباب عديدة، أهمها الاعتماد المبالغ فيه على المؤشرات الكمية بدل من المؤشرات الكيفية.

ويبيّن أن المشكلات الكبرى التي يعاني منها العالم اليوم كالفقر في العالم الثالث والتصحر والتلوث والتسلح وانقراض الأجناس، لم تتم تغطيتها في مناهج التربية البيئية في كثير من دول العالم.

ويعتقد بت أن التربية البيئية يجب أن تحتل الأولوية في استراتيجيات حماية البيئة في المستقبل، وألاّ تعمل في فراغ، بل بوصفها جزءاً من نظام بيئي متكامل، وأن تستجيب كذلك وبشكل مناسب للتغيرات الاجتماعية والاقتصادية. كما يدعو بت إلى بذل أقصى الجهود في سبيل تنسيق النشاطات الدولية البيئية وتشجيع الحوار بين النظم الثقافية والاجتماعية المختلفة حول التربية البيئية، ومن الضروري أيضاً تعميق الروابط بين المشكلات العالمية

المعاصرة مثل : الفقر والتسلح وانعدام العدالة والمساواة وغير ذلك... ".

ويقول أورويوردان في كتاب " مستقبل البيئة " : "إن هنالك أربع ثورات بيئية هبت على العالم، الثورة الأولى انبثقت في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي، حيث رأى كتاب وشعراء أمثال إمرسون وتولستوي أن الطبيعة رمزٌ لحياة المجتمع البشري، ومثالٌ يفرض معايير وقيماً أخلاقية تهتم بالبيئة بما فيها من أشجار ومياه... ثم بدأت الثورة الثانية في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي واستمرت حتى بداية القرن العشرين وتمثل مرحلة قيادة للبيئة وإفادة منها، فإن أنصار قيادة البيئة يرون في البيئة ثروة اقتصادية ينبغي تسخيرها في سبيل الإنسان، فتدخلوا في عملياتها واستنزفوا خيراتها ... وظهرت الثورة الثالثة في منتصف الستينات من القرن الحالي، حيث اتسمت بالنمو الاقتصادي السريع وتطور وسائل الاتصال الحديثة، واستحواذ المشكلات البيئية على اهتمام الصحافة وأجهزة الإعلام، وظهور القوانين والمؤسسات البيئية، وهذه

مرحلة مهمة لتنظيم البيئة وضبط التلوث والحفاظ على الموارد، بطرق عملية منهجية.

ومنذ سنوات كنّا وما زلنا على أعتاب الثورة البيئية الرابعة التي تتسم بنظرة خاصة للإنسان باعتباره مسؤولاً عن دمار البيئة، وهذا يستوجب العمل على تحويل هذا الإنسان من سبب لخراب البيئة إلى سبب لإنقاذها..".

وبعد هذه الآراء التي توضِّح ضرورة التوسع في الأبحاث البيئية من أجل الوصول إلى معالجات ناجعة للأخطار التي تهدد الطبيعة مع الحاجة الملحة لنظرة جديدة إلى العالم وإلى أخلاقيات جديدة. ولذا ينبغي الاستعانة بآراء علماء الاجتماع والاقتصاد وباقي المختصين في العلوم الإنسانية، لرسم المعالجات المنشودة حسب الخطط التالية:

(١) تشجيع تطوير تقنيات معينة مناسبة لنقلها إلى اقتصاديات العالم الثالث، مع التركيز على تقنيات الطاقة لتقليل الحاجة إلى وقود الحطب، تلافياً لإتلاف الغابات.

(٢) تقديم مساعدات تنموية إلى المجتمعات المحلية والناس العاملين بطريقة مباشرة.

(٣) قيام المدارس والمعاهد والجامعات بدور مهم في التوعية البيئية، لا سيما في مجال الحفاظ على البيئة وحمايتها.

(٤) الأخذ بمبادئ وقيم بيئية رشيدة مثل :

أ- الاستعمال الكيفي للموارد، ووقف التخريب البيئي غير المقبول اجتماعياً، وغير المرغوب اقتصادياً، وتقليص الهدر في الموارد.

ب- استخدام أشكال من التقنية المقبولة بيئياً واجتماعياً.

ج- الحفاظ على جمال الطبيعة.

د- وضع سياسات بيئية تصون البيئة.



٨- حقائق أساسية عن البيئة :

وضعت الشريعة الإسلامية من خلال مصادرها الأساسية القرآن الكريم والسُنة النبوية تصوراً شاملاً يشمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد والماء والهواء.

وإذ كان الإنسان مكرماً على سائر المخلوقات وخليفة الله في أرضه سبحانه وتعالى، وإذ كان مفضلاً على سائر الكائنات، سُخرت له هذه المخلوقات والكائنات ليقوم بعبادة الله عز وجل ويتقوى على طاعته سبحانه، ويعمر الأرض ويسعى في سبيل كسب رضى الله، تبعاً لقاعدة الاستخلاف.

ومن سنن الله سبحانه في كونه أن خلق كل كائن ليؤدي دوراً معيناً ووظيفة متناسبة مع تكوينه؛ وذلك حتى يتم حفظ التوازن بين هذه المخلوقات، كما قال سبحانه: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) ﴾

(سورة الذاريات، الآية: ٤٩).

ولذا جاء الأمر لنوح عليه السلام ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (سورة هود، الآية: ٤٠).

وذلك حماية لها من الانقراض بسبب الطوفان، وهذا يفيد ضرورة اتخاذ الإجراءات اللازمة لحفظ النوع والسلالة في الكائنات الحية، انطلاقاً من مقصد هام من مقاصد الشريعة هو حفظ النسل.

ومن المعلوم أن حفظ الحياة لا يتم إلا بحفظ مكونات البيئة، حيث هي عامل ضروري لاستمرار الحياة، ولما كان حفظ الحياة واجباً، كان الحفاظ على عناصر البيئة واجباً، حفظها من التلوث والتعطيل والاستنزاف انطلاقاً من قاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ومن ثمّ استخلف الله سبحانه الإنسان المخلوق المكرم على هذه البيئة، وملّكه لها تبعاً لقاعدة الملكية، ملكية انتفاع لا ملكية رقبة، ومقتضى ذلك أن كل جيل أمين

على ما استخلف عليه ، وأن عليه المحافظة على هذه الأمانة وتسليمها للجيل الذي يليه. إن مفهوم حماية البيئة في الشريعة الإسلامية لا يقتصر على حماية الإنسان من الأخطار التي يتعرض لها في وجوده وصحته فحسب ، لكنه يتجاوز هذه النظرة ليشمل حماية جميع المقومات الأساسية للحياة من إنسان وحيوان ونبات وماء وهواء وتربة ومعادن... مما يدخل ضمن مجموع الكليات الخمس أو مقاصد الشريعة الإسلامية (حفظ الدين وحفظ العقل وحفظ المال وحفظ النسل أو حفظ العِرْض وحفظ النفس) وقد جاءت الشريعة الإسلامية للحفاظ على هذه الكليات والمقاصد بل جعلتها مقصودها الأعظم.

وهو الأمر الذي بدأ المهتمون بقضايا البيئة يدركونه مؤخراً ، إذ مشكلة تلوث البيئة مثلاً بدأت معالجتها باعتبار الآثار التي تتركها على الإنسان ، ثم حدث تجاوز هذه النظرة في ضوء إدراك الوحدة الحقيقية للمجال الحيوي ، فالتلوث ينظر إليه اليوم على أنه يشمل الظواهر المؤثرة على جميع الكائنات الحية.

ومن الأمور الأساسية التي حرص عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم الالتزام بالبيئة، وقد أوصى بها المسلمين، إذ نص أكثر من حديث على أن النظافة من الإيمان، والحق أنَّ إفساد البيئة وتلويثها يبدأ بتلويثها اليسير أو عدم التزام النظافة وإماطة الأذى عنها.

ومن الملاحظ أن سور القرآن الكريم حملت عدة أسماء لكائنات حية من حيوان وشجر، كسورة البقرة وسورة التين، ومن الجماد كسورة الحديد، ومن الأفلاك كسورة الشمس، ومن الظواهر الطبيعية كسورة الرعد، وغير ذلك مما يحفل به القرآن الكريم. وفي هذا إشارة إلى حقيقة مهمة هي أن الإنسان مخلوق يشترك مع البيئة الطبيعية ذاتها، ومع كل المخلوقات، في خضوعه للسنن الكونية الإلهية.

وتجدر الإشارة إلى حقيقة مهمة أخرى هي أن القرآن الكريم ليس موسوعة في العلوم الطبيعية أو دائرة معارف متخصصة، ولكنه كتاب هداية وإرشاد ودعوة ونصيحة وأمثال وقصص وحكم وأوامر ونواهي وهو في الأساس معجزة رسولنا محمد بن عبد الله النبيِّ الأميِّ.



٩- المنظور الإسلامي لمشكلات البيئة :

لقد خلق الله الإنسان من الأرض ثم استعمره فيها ، قال تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (سورة هود، الآية: ٦١). وفي حين يشارك الإنسان على هذه الأرض مخلوقات وكائنات أخرى من حيوانات ونباتات وغيرها ، إلا أن الله سبحانه وتعالى فَضَّله على سائر المخلوقات ، وسخرها لخدمته ومكنّه من الانتفاع بها ، قال تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾ ﴾ (سورة الإسراء، الآية: ٧٠). وحتى يتمكن الإنسان من الانتفاع بهذه المخلوقات ، فقد أوجدها الله علي هيئة من التوازن ، بحيث لا يطغي بعضها على بعض ، الأمر الذي قد يحول بين الإنسان والانتفاع بها ، أو قد يحيل بعضها إلى مصادر ضرر عليه ، قال تعالى : ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾ (سورة الحجر، الآية: ١٩).

ولذا، فإنّ الإنسان مقيّدٌ بمراعاة الاعتدال، وتجنب الإسراف والبطر والتجبر وكل ما من شأنه الإخلال بالتوازن البيئي، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ (سورة الفرقان، الآية: ٦٧).

إن أحكام الشريعة الإسلامية وقواعدها غائية بالإجماع بمعنى: أنها شرعت وسائل تستهدف غايات معينة هي مصالح المكلفين. ومن المتفق عليه بين جمهور علماء المسلمين أن الله سبحانه ما شرع حكماً إلا لمصلحة عباده. وأن هذه المصلحة إما جلب نفع لهم أو دفع ضرر عنهم.

وقد اتفق علماء الأصول على أن تكاليف الشريعة ترجع إلي حفظ مقاصدها وهي خمس من حيث التقسيم: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال، ويتم تحققها على مراتب ومستويات ثلاثة هي: الضروريات ثم الحاجيات ثم التحسينات.

ومن ثَمّ، فإن الشريعة الإسلامية لا تتضمن ما يتعارض مع الطروحات الإسلامية لمفهوم التنمية والبيئة، وهو المفهوم الذي يتطلب ترشيد استخدام الموارد وتجنب الإضرار بالآخرين، ومراعاة مصالح أبناء هذا الجيل والأجيال القادمة، والاعتراف بأن الإنسان مستخلف على هذه الأرض وأن حقه في الانتفاع بمواردها مقيّد بمسئوليته إزاء الاستخدام الرشيد لهذه الموارد.

ومن المستحسن هنا أن نذكر بعض الحقائق المهمة في الموضوع، منها :

(١) أن الشريعة الإسلامية ومن خلال القرآن الكريم والسنة النبوية وضعت تصوراً شاملاً للبيئة شمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد والماء والهواء . وجعل الإنسان مكرماً على سائر المخلوقات، وسخرت له، انطلاقاً من قاعدة الاستخلاف.

(٢) لقد أرْسَتِ الشريعة الإسلامية مبدأ سَدِّ الذرائع إلي الفساد أيّاً كان نوعها، تقييداً للتعامل مع البيئة، بما يدرأ عنها المفسدة إبان التصرف السيئ في المباحات أو

الحقوق فضلاً عن المجاوزة والعدوان، وهو مبدأ عظيم الأثر في توثيق مصالح الأمة مادياً ومعنوياً، بما يشمل موارد البيئة الطبيعية، فيندرج في مضمون هذا مفهوم الحفاظ على البيئة.

(٣) أن الفقه الإسلامي تناول بالتنظيم والتأصيل عقوداً مهمة تتصل باستثمار الأرض مثل: عقد السَّلَم، والمزارعة والمساقاة، وإحياء الأرض، وإحياء الموات، مما يُعدُّ دليلاً بيّناً على أن الإسلام قد أولى عنايته لهذا المورد الطبيعي ليجعل من الأرض جنة الدنيا، زراعة وغرساً وعمارة.

(٤) أنَّ مفهوم الحماية في أصول الفقه واسع جداً، يشمل الإقامة أو الإيجاد للمورد، إن لم يكن قائماً، وتثبيت قواعده، أو استثماره بأنجع السبل ليؤدي منافعه، كما يشمل التنمية، والتي من مفهومها التطوير إلى أفضل، فضلاً عن شمولها للحفظ الذي يعني الإمداد بما يضمن استمرار القيام، ويدرأ أسباب النقص في الإنتاج، نتيجة لفساد الموارد.

(٥) الالتزام بنظافة البيئة من الأمور الأساسية التي حرص عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وأوصى بها المسلمين، إذ نص أكثر من حديث على أنَّ النظافة من الإيمان. والحق أن إفساد البيئة وتلويثها المفني لها، إنما يبدأ بتلويثها اليسير أو عدم التزام النظافة وإماطة الأذى عن البيئة.

(٦) أكدت الشريعة الإسلامية في حديثها عن البيئة حقيقة الترابط القوي والفعال بين مكوناتها، فالهواء يحمل الماء، والماء ينزل على الأرض، فيخرج النبات، الذي يتغذى عليه الإنسان والحيوان.

وهذه الحقيقة تحتم عند اتخاذ إجراءات معينه لحماية البيئة، مراعاة أن تنصب هذه الحماية على جميع مكوناتها.

(٧) حماية البيئة في الشريعة الإسلامية أمانة ومسؤولية يتطلبها الإيمان، وتقتضيها عقيدة الاستخلاف في الأرض، وإذا كان من ثمرات الإيمان الصادق وآثاره الإخبات لله تعالى وإخلاص العبادة له، فإن من ثمراته أيضاً القيام بالتكاليف الشرعية كما أمر الله تعالى، ورعاية البيئة، والمحافظة عليها كما خلقها الله، رحمة بالمخلوقات.



١٠- مستقبلنا المشترك :

من المفيد أن نذّكر بالمشكلات البيئية في المجتمع المعاصر التي تناولها الباحثون، مثل :

التلوث، واستنزاف الموارد، والإخلال بالتوازن الطبيعي للأنظمة البيئية، فهناك وجهات نظر مختلفة تناولت هذه المشكلات، ومن ذلك :

أولاً : وجهة نظر الأمم المتحدة ضمن برنامجها للبيئة حيث ينظر برنامج الأمم المتحدة للبيئة إلى المشكلات البيئية في إطار أربع زوايا هي : الآثار المادية المتضمنة لإتلاف الموارد والتلوث البيولوجي، والتلوث الكيميائي، وإخلال التوازن البيئي.

ثانياً : النطاق الجغرافي : حيث ينظر إلى المشكلات البيئية في حدودها المحلية والإقليمية والعالمية.

ثالثاً : النطاق الزمني : حيث يقسم آثار أنشطة الإنسان على البيئة إلى آثار تظهر فوراً وأخرى تستغرق وقتاً

قبل أن تظهر دلالتها الحقيقية، وبعض الآثار تقع في نطاق بين الفئتين السابقتين.

رابعاً : النطاق الاجتماعي والاقتصادي : ومنه تظهر قضايا البيئة بمظهر مختلف في البلدان النامية، عنه في البلدان الصناعية، بالرغم من أن هذا لا يلغي البعد العالمي المميز لمشكلات البيئة.

ومن ثمَّ، تبدو المشكلات البيئية أنها ذات طابع معقد، بَيْدَ أن من سماتها الأساسية بسطاتها الجوهرية، وهي في النهاية مشكلات رفاهية الإنسان. ومن ثم ينبغي أن يكون هدف كل فكر مستقبلي أو نظرة مستقبلية، حماية هذه الرفاهية وتحسينها . فهل هذا هو فكر وتصورات الحركات المستقبلية التي تنتشر اليوم في أجزاء مختلفة من العالم.

وعليه، ينقسم علماء المستقبل بين "متخوفٍ" على مستقبل الجنس البشري نتيجة التزايد المتنامي للمشكلات البيئية، وبين "آملٍ " بقدرة الإنسان على الحد من تفاقم مشكلات البيئة وربما التغلب عليها مما يتيح للأجيال القادمة مستقبلاً مريحاً.

إنه، ومع تنامي أجراس الخطر والضغط الشعبي لأنصار البيئة وظهور الحصار المرير من تصحر وذوبان الغابات والتلوث والثقب الأوزوني، وجدت هيئة الأمم المتحدة نفسها في حاجة لتشكيل لجنة عالمية للبيئة، وقدمت هذه اللجنة تقريرها الواقعي الشامل، المدعوم بالحقائق والإحصاءات المذهلة، مشيرة للتقصير المريع في إيقاف الكارثة، ومقترحة بالتالي بعض الخطوط العامة للحل، مهتمة بالطرق التي تؤتي ثمارها على المدى البعيد وأهمها: إشاعة مفهوم التنمية المستديمة، الذي ينظر لبقاء واستمرار دورة الطبيعة، وتجددها عبر قانونها: التوازن. وذلك من خلال تقرير "مستقبلنا المشترك" ويسمى تقرير لجنة برونتلاند، نسبة إلى رئيس اللجنة العالمية للبيئة والتنمية، غروهارليم برونتلاند رئيسة وزراء النرويج، المكلفة من الأمم المتحدة، وفريقها البحثي، لدراسة تأثير السياسة التصنيعية والاقتصادية لدول العالم في الموارد الطبيعية التي يمكن اعتبارها ملكاً، تهدره الأجيال الحالية كما تشاء، فكان هذا التقرير.

وقد تشعب التقرير في نواحٍ شاسعة من الأفكار ليكون على مستوى الحل الواسع والأبعاد، ومؤكداً أهمية الحل القائم على تطوير الإنسان نفسه، داعياً لعلاقة جديدة مع البيئة كشرط أساسي للإنقاذ.

ويساعد على نجاح تيار التنمية المستديمة التربية على كل الأصعدة، وتجديد روح العمل في المؤسسات لتكون على مستوى هذا الأمل الكبير الذي يفكر بالغذاء والطاقة والماء والمرافق والتقدم دون المساس بنظافة الطبيعة.

ويعترف التقرير في أكثر من مكان بالصعوبات التي تعترض التنمية المتجددة ومنها : تكاثر السكان، والجوع، والديون، وعدم المبالاة، ولكنه يقترح بالتوازي بعض الأمور التي تربط المعونات واستمرار التقدم بمدى الفاعلية البيئية المقللة للتلوث، ويؤكد على أهمية التفكير بالغذاء كإجراء حاسم.

ويؤكد التقرير مراراً على أهمية جعل البيئة من الهموم المشتركة العالمية، فيقترح الإدارة الجماعية لأهم مكونات الحياة العامة، ومنها البحار والمحيطات..

ويدعو التقرير إلى تطوير الاتفاقيات التي تحافظ على النظافة، والتخلص من النفايات الخطرة، كما يدعو لتحسين المصايد واستغلالها العلمي الواعي.

الجهود المشتركة، إذن، على كل الأصعدة العامة والخاصة، كفيلة بتأمين التنمية المستديمة، ولن يكون ذلك إلا في إشاعة السلم والأمن العام للإنسانية جمعاء.

تقول غروهارليم برونتلاند: "وبعد عقد ونصف من التدهور في التعاون العالمي، أعتقد أن الوقت قد حان لتوقعات أسمى ولأهداف مشتركة نسعى لها، يداً واحدة، ولإرادة سياسية متعاظمة، تتوجه نحو مستقبلنا المشترك..".

الدراسة الثانية:

الإسراف والتبذير

مفهوم الإسراف والتبذير :

المعنى اللغوي للإسراف والتبذير هو مجاوزة الحد[١] وقد ذكر القليوبي هذا المعنى اللغوي في تعريف الإسراف ، ولكن بعض العلماء خص استعمال الإسراف بالنفقة والأكل.

يقول الجرجاني في تعريفاته : " الإسراف تجاوز الحد في النفقة . قيل : أن يأكل الرجل ما لا يحل له أو يأكل ما يحل له فوق الاعتدال ومقدار الحاجة . وقيل : الإسراف تجاوز الكمية فهو جهل بمقادير الحقوق . قيل : هو إنفاق المال الكثير في الغرض الخسيس[٢] ".

---

(١) ينظر : ابن منظور - لسان العرب جـ ٤٨/١١ .والفيروز أبادي - القاموس المحيط، جـ ١٥٦/٤

(٢) ينظر : القليوبي - حاشية منهج الطالبين ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى الحلبي ، د.ت . جـ ٢٤٨/٣ وابن عابدين - حاشية رد المحتار ، جـ ٤٨٤/٥ ، والجرجاني - التعريفات ، ص ٣٨.

مما سبق نستطيع القول أن الإسراف هو تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان أو قول، وإن كان في الإنفاق أشهر.

وكما يكون الإسراف في الشر يكون في الخير، كمن تصدق بجميع ماله كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ (١).

والإسراف كما يكون من الغني، فقد يكون من الفقير أيضاً، لأنه أمر نسبي.. والإسراف يكون تارة بالقدر، ويكون تارة بالكيفية، ولهذا قال سفيان الثوري - رحمه الله -: "ما أنفقت في غير طاعة الله فهو سرف، وإن كان قليلاً (٢)"، وكذا قال ابن عباس رضي الله عنه: "من أنفق درهماً في غير حقه فهو سرف(٣)". أما التبذير فهو تفريق المال وإنفاقه في السرف. قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ (٤).

---

(١) الآية ١٤١/ سورة الأنعام، ينظر: تفسير القرطبي جـ ١١٠/٧، والمغني ابن قدامة جـ ٧٠٦/٢.

(٢) الراغب الأصفهاني - المفردات في غريب القرآن، ص٢٣٠.

(٣) القرطبي - الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٨٧ م، جـ ٧٢/١٣.

(٤) الآية ٢٦/ سورة الإسراء..

وخصه بعضهم بإنفاق المال في المعاصي، وتفريقه في غير حق[١].

ويعرف بعض الفقهاء التبذير بأنه : " عدم إحسان التصرف في المال، وصرفه فيما لا ينبغي، وأما صرف المال إلى وجوه البر فليس تبذير، وصرفه في الأطعمة النفيسة التي لا تليق بحاله تبذير"[٢].

وعلى هذا فالتبذير أخص من الإسراف؛ لأن التبذير يستعمل في إنفاق المال في السرف أو المعاصي، أو غير حق، والإسراف أعم من ذلك، لأنه مجازة الحد، سواء أكان في الأموال أم غيرها، كما يستعمل الإسراف في الإفراط في الكلام أو القتل وغيرهما.

وقد فرق ابن عابدين بين الإسراف والتبذير من جهة أخرى، فقال : "التبذير يستعمل في المشهور بمعنى

---

(١) ينظر : ابن منظور – لسان العرب، جـ٤/ ٥٠.

(٢) ينظر : النووي – تحرير ألفاظ التنبيه، تحقيق : عبد الغني الدقر، دار القلم، دمشق ١٤٠٨هـ ص ٢٠٠.

الإسراف، والتحقيق أن بينهما فرقاً وهو أن الإسراف: صرف الشي فيما ينبغي زائداً إلى ما ينبغي.

والتبذير: صرف الشي فيما لا ينبغي[١].

مثله ما جاء في " أدب الدنيا والدين " : " التبذير الجهل بمواقع الحقوق، والسرف الجهل بمقادير الحقوق"[٢] ويقول الراغب الأصفهاني : " إن التبذير في الحقيقة أقبح من الإسراف لأن بجانبه حقاً مضيعاً، ولأنه يؤدي بصاحبه إلى أن يظلم غيره، لهذا قيل أن المبذر أقبح لأنه جاهل بمقدار المال الذي هو سبب استبقاء الناس"[٣].

وعليه فإن الإسراف والتبذير بينهما علاقة عموم وخصوص، تخضع لقاعدة ((إذا اجتمعا اتفقا، وإذا افترقا اجتمعا)).

❁ ❁ ❁

---

(١) ابن عابدين – حاشية رد المحتار، جـ٥/٤٨٤.

(٢) أبو الحسن الماوردي – أدب الدنيا والدين، تحقيق مصطفى السقا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨ هـ ص ١٨٧.

(٣) الراغب الأصفهاني – الذريعة إلى مكارم الشريعة، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٩٣ هـ، ص ٢١٦

أسباب الإسراف والتبذير

وللإسراف والتبذير أسباب وبواعث توقع فيه، وتؤدي إليه، ونذكر منها[١]:

١- جهل المسرف بتعاليم الدين الذي ينهي عن الإسراف بشتى صوره، فلو كان المسرف مطلعاً على القرآن الكريم والسنة النبوية لما اتصف بالإسراف الذي نهى عنه ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾[٢] فعاقبة المسرف في الدنيا الحسرة والندامة ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[٣] وفي الآخرة العذاب

---

(١) ينظر: السيد محمد نوح - "الإسراف أسبابه وآثاره وعلاجه"، مجلة الاقتصاد الإسلامي، بنك دبي الإسلامي، دبي، ع ٥٠، محرم ١٤٠٦ هـ، ص ١٧ - ٢٥ ورفعة أحمد الغامدي - "أسباب الإسراف ومضاره وموقف الإسلام منه" مجلة الرابطة، مكة، ع ٢٨١، ذو الحجة ١٤٠٨ هـ ص ٣٨.

(٢) الآية/٣١ سورة الأعراف.

(٣) الآية ٢٩/ سورة الإسراء.

الأليم والعذاب الشديد ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[١]. ومن نتيجة جهل المسرف بتعاليم الدين مجاوزة الحد في تناول المباحات، فإن هذا من شأنه أن يؤدي إلى السمنة وضخامة البدن وسيطرة الشهوات، وبالتالي الكسل والتراخي، مما يؤدي به إلى الإسراف، جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "إياكم والبطنة في الطعام والشراب، فإنهما مفسدة للجسد، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد فيهما، فإنه أصلح للجسد، وأبعد من السرف."[٢].

٢- النشأة الأولى: فقد يكون السبب في الإسراف إنما هي النشأة الأولى، أي الحياة الأولى[٣] ذلك أن الفرد قد ينشأ في أسرة حالها الإسراف والبذخ، فما يكون منه سوى

---

(١) الآيات ٤١ - ٤٥/ سورة الواقعة.

(٢) ينظر: ابن مفلح المقدسي - الآداب الشرعية والمنح المرعية، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، ١٣٩١ هـ جـ ٢٠١/٣.

(٣) جريدة الجزيرة - " أين التربية الاقتصادية ؟ " لا تعودوهم على الإسراف "، حوار، ع ٧٠٤٦، ١٤١٢/٧/٩ ص٩.

الإقتداء والتأسي، ولعلنا ندرك شيأً من أسرار دعوة الإسلام وتأكيده على ضرورة اتصاف الزوجين والتزامهما بشرع الله وهديه، قال تعالى : ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ﴾[1]. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "تنكح المرأة لأربع : لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك "[2]

٣- الغفلة عن طبيعة الحياة الدنيا وما ينبغي أن تكون، وقد يكون السبب في الإسراف إنما هي الغفلة عن طبيعة الحياة الدنيا وما ينبغي أن تكون، ذلك أن طبيعة الحياة الدنيا أنها لا تثبت ولا تستقر على حال واحدة.

والواجب يقتضي أن نضع النعمة في موضعها، وندخر ما يفيض عن حاجتنا الضرورية اليوم من مال وصحة إلى وقت آخر.

---

(١) الآية ٣٢/ سورة النور.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، ينظر: البخاري - صحيح البخاري، المكتبة الإسلامية، تركيا، توزيع مكتبة العلم، جدة، ١٩٨١ م، جـ ٩/٧.

٤- السعة بعد الضيق : وقد يكون الإسراف سببه السعة بعد الضيق، أو اليسر بعد العسر، ذلك أن كثيراً من الناس قد يعيشون في ضيق أو حرمان أو شدة أو عسر، فإذا هم صابرون محتسبون، وقد يحدث أن تتبدل الأحوال فتكون السعة بعد الضيق، أو اليسر بعد العسر، وحينئذ يصعب على هذا الصنف من الناس التوسط أو الاعتدال فينقلب على النقيض تماماً، فيكون الإسراف والتبذير.

٥- صحبة المسرفين : وقد يكون السبب في الإسراف إنما هو صحبة المسرفين ومخالطتهم، ذلك أن الإنسان غالباً ما يتخلق بأخلاق صاحبه وخليله، إذ إن المرء كما قال صلى الله عليه وسلم : " على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل "[١].

٦- حب الظهور والتباهي[٢] : وقد يكون الإسراف سببه حب الشهرة والتباهي أمام الناس رياء وسمعة

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن غريب وأحمد والحاكم وقال صحيح ووافقه الذهبي وحسنه الألباني، ينظر: الألباني - صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، رقم ٣٥٣٩.

(٢) جريدة المدينة، (الإسراف والتبذير في المناسبات)، تحقيق، ع٨٩٧٩، ١٤١٢/٦/٩هـ، ص٢.

والتعالي عليهم، فينظر لهم أنه سخي وجواد، فينال ثناءهم ومدحهم؛ لذا ينفق أمواله في كل حين وبأي حال، ولا يهمه أنه أضاع أمواله وارتكب ما حرم الله..

٧- المحاكاة والتقليد : وقد يكون سبب الإسراف محاكاة الآخرين وتقليدهم حتى لا يوصف بالبخل فينفق أمواله كيفما كان من غير تبصر أو نظر في العاقبة التي سينتهي إليها[١].

٨- الغفلة عن الآثار المترتبة على الإسراف والتبذير : وقد يكون السبب في الإسراف والتبذير إنما هو الغفلة عن الآثار المترتبة عليهما، ذلك أنَّ للإسراف آثاراً ضارة، وللتبذير عواقب مهلكة، وقد عرف من طبيعة الإنسان أنه غالباً ما يفعل الشي أو يتركه، إذا كان على ذكرٍ من آثاره وعواقبه، أما إذا غفل عن هذه الآثار، فإن سلوكه يختل وقد تبين من خلال دراسة ميدانية[٢] عن المشكلات الاقتصادية التي

---

(١) مجلة الدعوة - "الإسراف والتبذير مَنْ المسؤول"، تحقيق، ع ١٢٥٠، ١٤١٠/١٢/٢٧ هـ ص٢٠-٢٣.

(٢) وليد شلاش شبير- مشكلات الشباب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩هـ، ص ٢٨٠.

تواجه الشباب أن معظم التعبيرات الحرة من أفراد عينة البحث كانت تعبر عن التبذير والإسراف في غير مكانه بنسبة ٨ , ٢٪ ومن نماذج تعبيراتهم الحرة " إنني مبذر أذهب إلى المحل وأنا لا احدد ما سأشتري "، " عدم التوازن في النفقات وعدم تنظيم الصرف "، " أحياناً أضع مالاً في غير مكانه الصحيح "، " عدم قدرتي على حفظ نفسي من صرف المال "، هذه التعبيرات تبرز حاجة الشباب خاصة إلى المنهج الإسلامي في معالجة ظاهرة الإسراف والتبذير وإنفاق المال في كل ما هو شرعي وغير ضار.



نماذج من الإسراف والتبذير

يذكر الإمام محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله صوراً من الإسراف فيقول : " من الإسراف الأكل فوق الشبع ، ومن الإسراف الاستكثار من المباحات والألوان ، ومن الإسراف أن يضع على المائدة من ألوان الطعام فوق ما يحتاج إليه للأكل ، ومن الإسراف أن يأكل وسط الخبز وأن يدع حواشيه ، أو يأكل ما انتفخ من الخبز كما يفعله بعض الجهال يزعمون أن ذلك ألذ ، و من الإسراف التمسح بالخبز عند الفراغ من الطعام من غير أن يأكل ما يتمسح به ، ومن الإسراف إذا سقط من يده لقمة أن يتركها ..ثم يقول رحمه الله : وأمر اللباس نظير الأكل في جميع ما ذكرناه[1] .

ويذكر أبو الحسن الماوردي رحمه الله نماذج من التبذير فيقول : " من التبذير أن ينفق ماله فيما لا يجدي عليه نفعاً

(١) محمد بن الحسن الشيباني - الكسب ، ص٧٩-٨٣.

في دنياه ولا يكسبه أجراً في أخراه، بل يكسبه في دنياه ذماً ويحمل إلى آخرته إثماً، كإنفاقه في المحرمات وشرب الخمر وإتيان الفواحش وإعطائه السفهاء من المغنين والملهين والمساخر والمضحكين، ومن التبذير أن يشغل المال بفضول الدور التي لا يحتاج إليها وعساه لا يسكنها أو يبنيها إلى أعدائه ولخراب الدهر الذي هو قاتله وسالبه، ومن التبذير أن يجعل المال في الفرش الوثيرة والأواني الكثيرة الفضية والذهبية التي تقل أيامه ولا تتسع للارتفاق بها.(١) ثم يقول: وكل ما أنفقه الإنسان مما أكسبه عند الله أجراً ويرفع له إليه منزلة، أو يكسب عند العقلاء أهل التميز حمداً فهو جود وليس بتبذير وإن عظم وكثر، وكل ما أنفقه في معصية الله التي تكسبه عند الله إثماً وعند العقلاء ذماً فهو تبذير وإن قل ونزر(٢).

وليس واقع العالم الإسلامي ببعيد عن هذه النماذج وتلك الصور(٣). ونذكر فيما يلي نماذج أخرى من التبذير والتبديد، وأشكالاً من الإسراف والسفه، وألواناً من الهدر

---

(١) أبو الحسن الماوردي - نصيحة الملوك، تحقيق خضر محمد خضر، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٣ هـ ص ٣٦.

(٢) أبو الحسن الماوردي - نصيحة الملوك، ص ٢٦.

(٣) ينظر: مجلة المقتطف - "تبذير الشرق وتدبير الغرب" بيروت، ١٩٧٦ م، ع٥، ص١١٠-١١٢، وع٦، ص١٢٨، ١٣١، مجلة الدعوة - "المبذرون"، تحقيق، ع١٠٣٠، ١٤٠٦/٦/١٥ هـ، ص١٤-٢٠، ومجلة لواء الإسلام - "الإسراف في الأفراح والمآتم"، ع١٠، جمادى الآخرة ١٣٧٧هـ، ص ٦٥٢-٦٥٣.

والضياع، نتيجة السلوك الاستهلاكي غير الرشيد في واقع العالم الإسلامي، ومن ذلك[١]:

١- الخمور والمخدرات والدخان: هذه صنوف استهلاكية ضارة من شأن الإنفاق عليها أن يستنفد جانباً من القوة الشرائية العامة، هذا الجانب يُعدّ ضياعاً، بمعنى أنه كان سيصرف على الضروريات لو لم يصرف عليها. ونجد العالم الإسلامي يستهلك مواد مخدرة بمئات الملايين من الدولارات[٢]، وقد أوضحت الدراسات التي شاركت فيها منظمة الصحة العالمية أنه في الوقت الذي بدأ فيه التدخين يقل في بعض أجزاء العالم المتقدم بفضل زيادة الوعي الصحي في هذه البلدان، فإنه من المؤسف أن تعاطي

---

(١) ينظر: عبد المغني سعيد- نحو الرشد الاقتصادي، ص ١٧٤-١٨٢، ود. نادر فرجاني - هدر الإمكانية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٥م، ص٤٩-٧٩، ومحمد عبد القادر الفقي -"الإسراف وتأثيره على البيئة" مجلة منار الإسلام، الإمارات، ع٨، شعبان ١٤٠٩هـ، ص٣٨-٦٥.

(٢) ينظر: لولوة صالح آل علي - الوقاية الصحية على ضوء الكتاب والسنة، دار ابن القيم، الدمام ١٤٠٩هـ، ص٤٨٩/٥٤١/٥٩١، وجريدة الندوة - "المخدرات الخطر القاتل": العالم العربي يستهلك مواد مخدرة بمئات الملايين من الدولارات"، تحقيق ع ٩١٦٤، ١٦/٨/١٤٠٩هـ، ص١١.

التبغ مثلاً ازداد في البلدان النامية ومنها العالم الإسلامي وبلغت نسبة الزيادة في آسيا ٣٠٪ ، أما في أفريقيا فقد زادت نسبة تعاطي التبغ بدرجة بلغت ١٧٠٪[١].

وفي دراسة أخرى أعدها أحد الباحثين أوضح فيها أن حجم الأموال التي تنفق على عمليات الاتجار بالمخدرات في الوطن العربي تجاوز مبلغ ٥٠ مليار دولار سنوياً[٢].

٢- الإفراط في الطعام : إن الإنسان إذا أكثر من الطعام لم يستطع له هضماً ، حيث يصاب بالتخمة وعسر الهضم ، وقد يحدث أن تصاب المعدة بالاتساع والتمدد نتيجة الإفراط في تناول الطعام فيفقد المرء شهيته للأكل إن تناول طعاماً لم يستطيع له هضماً ، فقد يصاب نتيجة لذلك بالإسهال أو الإمساك ، كما أن الإسراف في الطعام يؤدي

---

(١) مجلة النور -"الاستعمار السجائري" ، تحقيق الكويت ، ع٧٢ ، صفر ١٤١٠هـ ، ص٦-١٠.

(٢) مجلة الاقتصاد الإسلامي -"٥٠ مليار دولار سنوياً تُنفق في الوطن العربي على المخدرات" ، دبي ، ع١٣١ ، شوال ١٤١٢هـ ، ص١٨.

إلى البدانة ثم يتعرض الإنسان لأمراض القلب وارتفاع الضغط وأمراض الكلى والسكر.

ولا تقتصر مشكلة الإسراف في الطعام على استهلاكه، بل تمتد لتشمل بعض السلوكيات المرتبطة به، وفي هذا الصدد تشير بعض الدراسات التي أجريت في الكويت أن ما يلقى ويتلف من مواد غذائية ويوضع في صناديق القمامة كبير إلى الحد الذي قد تبلغ نسبته في بعض الحالات ٤٥٪ من حجم القمامة. وفي مدينة الرياض أظهرت دراسة أعدتها أمانة مدينة الرياض عن نفايات المدينة أن كمية النفايات اليومية لكل فرد من نفايات المواد الغذائية تبلغ ١٠٦٠ جراماً، والملاحظ في دول الخليج العربي أن كمية المواد الغذائية التي تلقى في القمامة كبيرة جداً بالمقارنة مع غيرها من دول العالم(١).

٣- الإعلان والعادات الشرائية الخاطئة: من أهم مظاهر الضياع في الاستهلاك، الخسارة الاقتصادية الناجمة

---

(١) محمد عبد القادر الفقي -" الإسراف وتأثيره على البيئة "، ص٥٥-٥٦.

عن الجهل والخرافة في شراء الضروريات. فالعادات الشرائية تميل لأن تكون ثابتة مهما كانت خاطئة، وغالباً ما يقوم استهلاك الفرد على أساس عشوائي مرتجل لأعلى أساس رشيد، إذ هو يستند على عادات شرائية غالباً ما تكون خاطئة، ويستمر الفرد في أدائها؛ لأنه وجدها هكذا أو بدافع التقليد للآخرين. ومن أوضح الأمثلة للعادات الشرائية الخاطئة : أن الناس يشترون التفاح للونه الأحمر وليس لقيمته الغذائية، كما يفضلون الخبز الأبيض والأرز المقشور على الخبز الأسمر والأرز غير المقشور وهما الأفضل من الوجهة الغذائية، فإذا أمكننا بأية طريقة تعليم المستهلك الأصناف التي تعطي قيمة غذائية قصوى أقل نفقة لاقتصدنا الكثير من العمل الإنتاجي، هذا ما تناوله بالتفصيل هنري هارب[(١)] في كتابه "تعليم المستهلك". ويُعدُّ الإعلان مسئولاً إلى حد كبير عن تكوين مثل هذه العادات الشرائية الخاطئة.

(١) H. Harrap - The Education of The Comsumer ,Mc Graw -Hill New York , 1950,p. 60-85.

فقد يعمد المعلنون إلى تشكيك الناس في سلع قديمة أو سلع جديدة في حوزتهم لم تبل أو تستنفذ بعد، لينصرفوا عنها إلى شراء سلع جديدة وهذا أيضاً يُعدُّ ضياعاً في الموارد الاستهلاكية.

ومن خلال الدراسات والتحقيقات[1] التي أجريت تبين أن الإعلانات التجارية تمارس دوراً كبيراً في خداع المستهلك، وفي دفعه إلى المزيد من الشراء إلى أشياء كثيرة لا حاجة إليها فعلاً، وهذا هو الإسراف بعينه، بل وتمارس الإعلانات دوراً في تغليب البواعث الوجدانية كالتقاليد وحب التميّز والزهو والطموح والدهشة وما إلى ذلك من خلجات النفس التي تسعى الإعلانات لإثارتها في الإنسان.

٤- جنون الأزياء وتعدد أنماط المنتجات: إن تغيرات الأزياء والنماذج المتعددة إن هي إلا تقلبات مفتعلة لحمل

---

(١) ينظر: د. نعيم أبو جمعة -"الخداع الإعلاني وأثره على المستهلك في دولة الكويت"، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، الكويت، ع٥٠، شعبان ١٤٠٧هـ، ص١٥-٧٣ وجريدة اليوم -"الإعلانات التجارية والإسراف" تحقيق ع ٦٨٣٢، ١٤١٢/٨/٢٥هـ، ص١١.

المستهلكين على الشراء، مع أنها لا تعكس رغباتهم، وقد تتنافر مع أذواقهم إلى حد كبير، وهم إذ يقبلون عليها فإنما يفعلون ذلك تحت تأثير الحملات الإعلانية الواسعة النطاق التي تولد في نفوسهم شعوراً بأنهم يكونون متأخرين إذا لم يقبلوا عليها. وتبدو هذه الظاهرة بوضوح في أزياء النساء، كما امتدت أيضاً إلى السيارات وأجهزة المذياع والتلفزيون والأثاث وبعض السلع التموينية[1] إذ أصبح الأغنياء يغيرون هذه الأشياء سنوياً ليتمشوا مع الطراز الحديث، والمستهلك قد يدرك بعض السلع قبل أن يحصل على الفائدة المرجوة منها، أو قبل أن تصبح غير صالحة للاستعمال. وهذا ما يعبّر عنه اقتصادياً بنقص في جملة

---

(١) ينظر : ياسر عبد الحميد الخطيب -سيكولوجية المستهلك السعودي وتصرفاته الشرائية وأثر ذلك على السياسات التسويقية في قطاع السيارات، رسالة دكتوراه مقدمة لقسم إدارة الأعمال، كلية التجارة، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٤٠٢هـ ،ص٣١٠-٣٤٠، غير منشورة ،ود.صديق محمد عفيفي - "تأثير اعتبارات الموضة على سلوك المستهلك - دراسة ميدانية في مدينة القاهرة"، مجلة المحاسبة والإدارة والتأمين ،كلية التجارة، جامعة القاهرة، ع٢١، ١٩٧٤م، ص١٨٤-١٩٤.

الإشباع العام، وهو ولا شك من أبرز نواحي الضياع في النظام الاقتصادي.

٥- المبالغة في الإنفاق العسكري : وهو من أهم مظاهر الضياع الاقتصادي في الموارد الاستهلاكية، وذلك لاستنفاذه لجانب كبير من ميزانيات الدول، كان سيعود على الجميع بالنفع الكبير لو أنفق على المشروعات والخدمات العامة لرفع مستوى المعيشة.

وإن كان هذا الإنفاق العسكري قد يتمخض عنه اكتشاف فنّ إنتاجي يفيد في القطاع المدني خاصة في الدول النامية، كما أننا مطالبون بالاستعداد العسكري استجابة لقوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [1] غير أن من السمات الرئيسية للدول النامية ومنها الدول الإسلامية وجود العديد من بنود الإنفاق الحكومي التي تتسم

(١) الآية ٦٠ / سورة الأنفال.

بالضخامة والتبذير والضياع، لا تتحقق التنمية إلا بضغط بنود الاستهلاك الحكومي التي تتسم بالإسراف والتبذير[1].

إن الإنفاق العسكري المتصاعد يعني ضمناً افتقاراً عاماً إلى الاقتناع بإبقاء حجم القوات والترسانات العسكرية عند حجم ثابت، ناهيك عن تخفيضه.

وثمة تناقض آخر بين الطلب المتزايد على الموارد من أجل التنمية والمخصصات المتزايدة لتلك الموارد للأغراض العسكرية. أستعرض فيما يلي بعضاً من المتناقضات الواقعة بين الأولويات العسكرية والاجتماعية والبيئية ومن ذلك :

(١) أنفق برنامج الأمم المتحدة للبيئة وعلى مدى عشر سنوات ٤٥٠ مليون دولار، أي ما يعادل أقل من خمس ساعات من الإنفاق العسكري العالمي.

---

(١) ينظر: د. زغلول النجار - قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر، كتاب الأمة(٢٠)، رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية، قطر، ١٤٠٩هـ ،ص٦٦، وسيد خليل -"مواكب الإسراف الحكومي مستمرة" تحقيق، مجلة لواء الإسلام، القاهرة، ع٨ ربيع الأخر ١٤١٠هـ ص١٨-٢١، ود. محمد شوقي الفنجري -" الإنفاق العسكري وتجارة الموت"، جريدة الشرق الأوسط، الرياض، ع٣٠٨٧، ١٤٠٧/٩/١٥هـ ص١٤.

(٢) بلغ إجمالي قيمة المساعدات الإنمائية الرسمية السنوية المقدمة إلى البلدان النامية ٣٥ مليار دولار أي ما يعادل ١٥يوماً من الإنفاق العسكري العالمي.

(٣) يمكن استخدام (٦-٧ ساعات من الإنفاق العسكري العالمي ٧٠٠ مليون دولار) للقضاء على الملاريا ، ذلك المرض القاتل الذي يفتك بأرواح مليون طفل سنوياً.

(٤) يعادل (يوم واحد من حرب الكويت ١٩٩١م ٥ ،١ مليار دولار) برنامج عالمي ، مدته خمسة أعوام لتحصين الأطفال ضد ستة أمراض قاتلة ، والحيلولة دون وفاة مليون طفل سنوياً.

والجدول التالي (رقم ١) يبين حجم الإنفاق العسكري وأثره على محاولات التعليم والصحة وغيرهما من الخدمات :

حجم الإنفاق العسكري في الوطن العربي (✻)

الإنفاق العسكري % إلى النتاج القومي		الإنفاق العسكري % إلى الصحة والتعليم ١٩٨٦	واردات أسلحة بالمليون دولار ١٩٨٧	صافي المساعدات للتنمية % إلى الإنفاق العسكري ١٩٨٦	أفراد القوات % المسلحة إلى المعلمين ١٩٨٦
١٩٦٠	١٩٨٦				
٥,٤	١٢	١٧٧	١٢,٠٢٥	١٠٨	١٩٨

(✻) مصدر الجدول : برنامج الأمم المتحدة الإنمائي - تقرير عن التنمية البشرية في العالم ١٩٩٠م، نيويورك ، جدول ١٨.

يبين الجدول أن الإنفاق العسكري منسوباً إلى الناتج القومي قد ارتفع من٤, ٥ ٪ عام ١٩٦٠م إلى ١٢٪ عام ١٩٨٦م.

وأنه يُعدُّ من أعلى نسب الإنفاق بمعايير أخرى كالإنفاق على الصحة والتعليم أو الخدمات الاجتماعية الأخرى، وإن أفراد القوات المسلحة يبلغون ضعف عدد المعلمين تقريباً، ومن ثم فإن تخفيض الإنفاق العسكري أو ترشيده أو تكامله بين الأقطار العربية سوف يتيح موارد إضافية لمجالات التنمية البشرية ومن أهمها قطاع التربية والتعليم.



الآثار المترتبة على الإسراف والتبذير

لا شك أن هناك العديد من النتائج والآثار السيئة المترتبة على شيوع ظاهرة الإسراف والتبذير، ومن ذلك[١] :

١- الإسراف خطر على العقيدة : الإسراف يرفع مستوى معيشة الفرد والأسرة رفعاً كاذباً يفوق الدخل الحقيقي المستمر، ثم لا تكاد المكاسب الجانبية تزول ولا يبقى سوى الدخل الحقيقي. حتى يلجأ كثير من المسرفين إلى طرق شريفة وغير شريفة لاستمرار التدفق النقدي وتحقيق المستوى العالي من الإنفاق الذي اعتادوه فتمتد اليد بشكل أو بآخر فيقعوا تحت وطأة الكسب الحرام، ذلك أن المسرف قد تضيق به أو تنتهي به موارده، فيضطر تلبية

---

(١) السيد محمد نوح :ـ الإسراف أسبابه وآثاره وعلاجه" ص ١٧-٢٧ وعبد الله الجعيثن-" الإسراف وخطره على العقيدة" مجلة الدعوة -الرياض ع١١٢٨، ١٤٠٨/٦/٢٠هـ، ص٢٤، مجلة البيان - عواقب التبذير، لندن ع١٣ ذي الحجة ١٤٠٨هـ، ص٤-٧.

وحفاظاً على حياة الترف والنعيم التي ألفها إلى الوقوع في الكسب الحرام، وقد جاء في الحديث "كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به "(١)

٢- الإسراف نوع من التسرع والتهور : الإسراف نوع من التهور والتسرع وعدم التبصر بعواقب الأمور وقد يكون دليلاً على الاستهتار، وعدم الحكمة في تحمل المسؤولية وكل ذلك يؤدي إلى وخيم العواقب وسيئ النتائج فهو يقتل حيوية الأمة ويؤدي بها إلى البوار والفساد ويملأ القلوب حقداً وضغينة ويقضي على حياة الأمن والاستقرار كما أن فيه كسراً لنفوس الفقراء وبطراً لأهل الغنى(٢).

٣- الإسراف ودواعي الشر والإثم : فالسرف داع إلى أنواع كثيرة من الشر لأنه يحرك الجوارح إلى المعاصي ويشغلها عن الطاعات. ، كما أنه يحرك الغرائز الساكنة أو الكامنة في هذه النفوس، وحينئذ لا يؤمن على الفرد من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم ج١/٣٧.

(٢) د. حمد الجنيدل - نظرية التملك في الإسلام، مؤسسة الرسالة ،بيروت، ١٤٠٣هـ، ص٨١.

الوقوع في الإثم والمعصية، فالشيطان أعظم ما يتحكم في الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : " ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطن، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه "(١).

٤- الإسراف وتأثيره على البيئة : يُعدُّ الإسراف سبباً رئيسياً من أسباب تدهور البيئة واستنزاف مواردها . وهو وإن كان متعدد الصور والأساليب، إلا أنه يؤدي بشكل عام إلى نتيجة واحدة : إهلاك الحرث والنسل، وتدمير التوازن البيئي(٢).

٥- الترف والدعوة إلى النعومة والليونة : يؤدي الترف إلى النعومة والليونة، التي تدفع الناس إلى الرذائل،

---

(١) رواه الترمزي – في الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم٢٣٨١، وقال هذا حديث حسن صحيح، ورواه أيضاً ابن حبان وابن ماجة والحاكم وصحّحه الذهبي. ينظر: ابن الأثير – جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني، بيروت، ١٣٩١هـ، جـ٧/٤١٠.

(٢) محمد عبد القادر الفقي – " الإسراف وتأثيره على البيئة " ، ص٥١.

وتقعد بهم عن الجهاد والتضحية، وفي ذلك أعظم الخطر على الأمة.

٦- التبذير والهوى : التبذير مما يأمر به الهوى وينهى عنه العقل، وأحسن الأدب في هذا تأديب الحق سبحانه حين قال: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾[1]. فالإنسان قد يعطى رزق شهر في يوم، فإذا بذر فيه بقي شهراً يعاني البلاء، و إذا دبّر منه عاش شهراً طيّب النفس.

٧- عدم الرعاية والاهتمام بالآخرين : ذلك أن الإنسان لا يراعي الآخرين ولا يهتم بهم غالباً، إلا إذا أضناه التعب وغصته الحاجة، كما أثر عن يوسف عليه السلام لما سئل " لا نراك تشبع أبداً ؟" قال : أخاف إن شبعت أن أنسى الجياع[2]. والمسرف مغمور بالنعمة من كل جانب، فأنّى له أن يفكر أو يهتم بالآخرين.



(١) الآية ٢٦ / سورة الإسراء.

(٢) أورد هذا الأثر : محمد قرة علي - سنابل الزمن، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٢٦٤.

الإسراف والتبذير في واقع الناس

إن موضوع الطعام والشراب في تاريخ الأمة المسلمة قديم وعريق، فأصوله تستمد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، كما أن كتب الفقه والرقائق والمواعظ والزهديات والأخلاق تفرد أبواباً للطعام والشراب، تنهى عن المحرمات، وتأمر بإتباع الآداب الشرعية.

أما اليوم فقد أصبح الطعام والشراب في حياة أغلب الناس نهماً وشرهاً، وإسرافاً وتبذيراً ولذة وغاية. تُهدر في صناعة الأطعمة والأشربة الأموال، وتنصب الموائد المفتوحة في البيوت والمطاعم ويجري السباق في إقامة الحفلات والمسابقات الباذخة.

وانزلق عامة الناس إلى مساوي التقليد الأعمى للأمم المادية المترفة واتسمت حياة الكثيرين بالتكلف والإسراف في ولائمهم وأعيادهم وحياتهم. حتى أصبحت أعيادنا مظاهر

باهظة الثمن ورمضاننا في كل عام موسماً للترف والسرف، بدلاً من أن يكون عبادة وتهجداً.

فتحول الغذاء إلى خطر رهيب وارتفعت صيحات التحذير من مستقبل ينذر بالأخطار وباتت الحاجة ماسة للأمن الاقتصادي والاجتماعي والغذائي وترشيد الإنفاق والاستهلاك.

إن الإنسان كائن حي، يقوم بوظائف مهمة، عبادة الله ثم إعمار الأرض وإقامة مباديء العدل والخير وهذا يجعله بحاجة إلى الطعام كي ينمو ويعيش ويتحرك ويعمل ويحتاج إلى الماء، إذ لا يستطيع الإنسان البقاء حيّاً مدة طويلة بدون ماء.

فاستجابة الكائن البشري لغريزة الطعام والشراب أمر فطري. كما أن المحافظة على القوام الغذائي المتنوع والتوازن مع التوسط والاعتدال يمنح الإنسان في مراحل عمره جسماً قوياً وصحة دائمة وعمراً مباركاً ومديداً.

إذ لا يكفي الإنسان في طعامه وشرابه أن يتناول نوعاً واحداً، فلا بد من توافر الاحتياجات الأساسية من

مثل : الماء، والسكريات، والدهون والشحوم، والبروتينيات، والفيتامينات وبعض العناصر المعدنية.

إن الإنسان إذا أكل ما يسد به جوعه وشرب ما يسكن به ظمأه، فإن هذا مطلوب عقلاً، ومندوب إليه شرعاً، لما فيه من حفظ النفس وصيانة الحواس.

يقول محي الدين مستو في كتابه "الطعام والشراب بين الاعتدال والإسراف[1] إذا كانت التخمة تمرض وتميت، فإن الحرمان يمرض النفس ويُفترّ عن العبادة أما الوسطية فإنها تنشط النفس وتظهر روحانيتها، فالاعتدال توسط بين التقتير والإسراف وبين البخل والإنفاق الزائد عن الحلال في المأكل والمشرب.

وقد حث رسول الهدى عليه السلام على الاعتدال وحض على التقلل من الطعام والشراب، فقال عليه الصلاة والسلام " الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل

(١) محي الدين مستو -الطعام والشراب ، ص٢٧.

في معي واحد " رواه مسلم قال حاتم الطائي ذآماً كثرة الأكل :

فإنك إن أعطيت بطنك سؤله

وفرجك نالا منتهى الذم اجمعا

إن الاعتدال إذن ، هو التوسط بين الجوع والتخمة بالتقليل من كمية الطعام والشراب دون أن ينقص عن حاجة البدن والعمل . وفي ذلك فوائد جمة منها : صحة الجسم وجودة الفهم ، وقوة الحفظ ، وقلة النوم ، وحفظ النفس ، قال بعض العلماء : أكبر الدواء تقدير الغذاء.

وفي المقابل فإن الإقبال على الطعام بشره زايد يجعل الأغذية عند النهمين المسرفين هدفاً وغاية ، يبذلون من أجلها الأموال الباهظة ، ويمضون أوقاتاً طويلة في الأسواق يشترون ألوان الأطعمة . وهؤلاء الذين جعلوا همهم بطونهم وأهدافهم ملذاتهم وشهواتهم ، يضنون بأموالهم عن مساعدة بائس أو إعانة فقير فنتج عن ذلك بطون جائعة وأموال ضائعة.

إن الإسراف والتبذير والترف والمباهاة سلوكيات استهلاكية خطرة دخلت مع الأسف حياة الناس وشملت معظم جوانب الحياة المختلفة، فهناك التنويع في الأطعمة والأشربة في الدعوات العامة والمناسبات وولائم الأعراس التي تكلّف أموالاً طائلة، وهناك الموائد المفتوحة المشتملة على أصناف عديدة، لقاء مبالغ محددة عن كل شخص وهناك الولائم المخصصة في حالات الوفاة والمآتم.

فيا عجباً من مجتمع يقيم الأفراح والولائم، والمجتمعات المسلمة تعاني من الأحزان والمآتم، وقديماً قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه كلمته المشهورة : " ماجاع فقير إلا بما تمتّع به غني.

ورد عن القاضي عياض رحمه الله قوله : " إن كثرة الأكل والشرب دليل على النهم والحرص والشره، وغلبة الشهوة، وهي وسيلة، مسبّبٌ لمضار الدنيا والآخرة وجالب لأدواء الجسد وخثار النفس أي فتورها.

إن الإسراف في تناول الطعام والشراب يؤدي إلى اختزانها في الجسم وتحولها إلى لحم وشحم وبدانة وبطنة،

تقعد بالإنسان عن كثير من أعماله ونشاطاته ، وقديماً قيل : "البطنة تذهب الفطنة" وقد ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قولته المشهورة وحكمته المأثورة : " إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة ، مؤذية للجسم وعليكم بالقصد في قوتكم ، فإنه أبعد عن الأشر ، وأصح للبدن ، وأقوى على العبادة إن أمرأً لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه.

ومن طريف القول ما أجاب به مسلمة بن عبد الملك ملك الروم حين سُئل : " ما تعُدّونَ الأحمق فيكم ؟ قال مسلمة : الذي يملأ بطنه من كل ما وجد. وكان فرقد رحمه الله يقول لأصحابه ناصحاً : إذا أكلتم فشدوا الأُزُر على أوساطكم ، وصغِّروا اللُّقم ، وشدِّدوا المَضْغ ، ومُصّوا الماء مصّاً ، ولا يحل أحدُكم إزاره فيتسعَ معاه ، وليأكل كل واحد من بين يديه.

وقد أجمعت الأطباء على أن رأس الداء إدخال الطعام على الطعام ، و قالوا : أكثر العلل إنما يتولد من فضول وزوائد الطعام.

إن مراتب الطعام والشراب (الغذاء) كما قسم ذلك ابن قيم الجوزية رحمه الله في كتابه " الطب النبوي "(١) مراتب ثلاثة : مرتبة الحاجة، ثم مرتبة الكفاية، وأخيراً مرتبة الفضلة.

وللأسف حتى في رمضان تزداد مصروفات الأسر لمجابهة الشراهة الاستهلاكية ونهم التسوق والإنفاق المرتفع، حتى أصبح مألوفاً في أمسيات شهر رمضان كثرة حالات الإسعاف بسبب الإسراف والتخمة.

ذات يوم أوقف الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابنه عبد الله (وقيل جابر بن عبد الله) رضي الله عنهم وسأله : إلى أين أنت ذاهب. فقال عبد الله للسوق . فقال الفاروق له : لماذا ؟! فأجاب : لأشتري لحماً وبرَّر ذلك الشراء بأنه اشتهى لحماً، فخرج إلى السوق ليشتري بعضاً منه، فقال له الفاروق : أكلما اشتهيت شيئاً اشتريته.

---

(١) ابن قيم الجوزية - الطب النبوي، ص٥٦.

إنها حكمة اقتصادية خالدة، وقاعدة استهلاكية رشيدة . خاصةً ونحن نشهد في أيامنا هذه سباقاً محموماً يترافق معه أساليب تسويقية جديدة، وأساليب إعلانية مثيرة، ووسائل إعلانية جذابة، ودعايات كثيفة من أجل الشراء والمزيد منه.

وقد تبيّن من خلال تحقيقات عديدة أن شريحة واسعة من الناس تشتري ما لا تحتاج وتستهلك من المنتجات والسلع أكثر من اللازم.

يقول وليام بن : إن ما ننفقه على أغراض الزينة الزائفة يكفي لكساء جميع العراة في العالم.

وهكذا أصبحت حياتنا المترفة تملأ البطون بما لذ وطاب وتغذي الأرواح بأشياء فارغة وفاسدة . فكم هو سخف الإنسان الذي يتظاهر دوماً بالذكاء والمعرفة.

يقول سمايل : إن الحياة السهلة المترفة لا تدرِّب الرجال على بذل الجهد أو مواجهة الصعاب ولا توقظ فيهم تلك المقدرة اللازمة للجهد الفعال في الحياة.

إن بعض الرجال يعتبر اهتمام النساء الزائد بالموضات وبضرورة التجاوب معها بأنه انعكاس لعدم تحليهن بقدر كافٍ من المعقولية في التفكير.

يقول علي غلوم: الشائع بيننا أن المرأة أكثر إسرافاً من الرجل، سواء في ملبسها أو إنفاقها، ولكن هناك من الرجال مَنْ هم أكثر إسرافاً في أموالهم وسلوكهم ومقتنياتهم، فالأمر نسبي ويرتبط بحجم ما يتوافر لدى الفرد من مغريات نحو الإسراف.

وتقول صباح المالكي في معرض حديثها عن الإسراف: من أسباب الإسراف حاجة المرأة لتملك بعض الأشياء التي ترى أنها في حاجة إليها لتجميل منزلها، أو لإضفاء البهجة على الأسرة والأبناء بوجه خاص من ألعاب وملابس واحتياجات.

وتؤدي الأنانية والنفعية الشخصية في كثير من الأسر والمجتمعات إلى الإسراف في استغلال مصادر الدخل.

ومن ثم، ظهر على الساحة هوس تسوّقي غريب وإدمان شرائي كبير، وحمّىً استهلاكية عجيبة، تؤجج

ذلك كله إعلانات مثيرة ودعايات جذابة ومسابقات مغرية وحوافز مشجّعة.

وأكثر الإعلانات أثراً هي تلك التي يمكن إعادتها بصيغٍ متعددة، وفي أماكن يمكن رؤيتها من قبل أعداد كبيرة من الناس كبرامج التلفزيون المحبّبة للمشاهدين والصحف والأسواق المركزية.

تقول فوزية خليل في معرض مشاركتها في تحقيق حول " هوس التسوّق عند المرأة " إن هوس التسوّق عادةً ما يكون انفعالياً ويمثل عند المرأة طريقة تعويض عن معاناة عاطفية، أو نتيجة حرمان أو قلق أو تعاسة زوجية، أو قلة حنان، وقد يكون هذا الهوس التسوّقي عند النساء أكثر شيوعاً.

وفي التحقيق نفسه تقول بدرية المطري : هناك من النساء مَنْ يشترين أغراضاً ليست ضرورية ولا في حدود إمكانياتهن، ويدفعن بالرجال إلى دفع الكثير من أجل إرضاء رغباتهن الجنونية.

ومن أهم نتائج تحقيق أجري حول (الإعلانات التجارية والإسراف) : الإعلانات تدفع المرأة للشراء والمزيد منه. كما أن المرأة تشتري السلعة عادةً على سبيل التجربة نتيجة الإعلان عنها . والمسابقات العديدة تغري الأطفال بالشراء بكثافة. ووصل التحقيق إلى نتيجة مهمة : الإعلانات التجارية مسؤولة إلى حد كبير في دفع الناس إلى الإسراف وخاصة المرأة، جرياً وراء التفاخر والمباهاة أو حباً للاستطلاع أو رغبةً في التقليد.

إن عادة التقليد بين الناس لا تقتصر على قطر من الأقطار أو جنس من الأجناس، بل إنها عادة عالمية يصعب تغييرها.

ثم إن النفس البشرية نفس لا تشبع، وفي الوقت نفسه لا تقنع، فهي طُلْعةٌ لكل نوع، متشوقة لكل شكل، فضولية لكل لون.

نعوذ بالله من عين لا تدمع وقلب لا يخشع، ، ومن نفس لا تقنع، ومن بطن لا يشبع ، ومن دعاء لا يستجاب له.

فالتخمة، والسِّمنة، والسرف، والتبذير، والترف والتبديد، والاستنزاف وتلال النفايات والقمامة. والثنائيات الاجتماعية، والترهل، واللامبالاة، وكفر النعمة... ما هذه إلا بعض آثار لا شك أنها تتولّد من السلوك الشرائي غير المنضبط، ومن الإدمان الاستهلاكي غير المتزن ومن الإنفاق البذخي غير الرشيد.

إن صناديق القمامة تشهد أكياساً من الزبالة وألواناً من النفايات المنزلية أشبه بالتلال نتيجة الاستهلاك المنزلي الشره، وصدق مَنْ قال إنَّ الاستهلاك هو طوفان التلوث القادم.

فإذا أضفنا إلى ما سبق شُيوع أخلاقيات الأنا والحسد والجشع والمباهاة والتقليد وكسر قلوب الفقراء والمساكين والمحتاجين واختلال الميزانيات الأسرية والاستدانة..فإن هذا كله يستلزم أن نقف في وجه الوحش الاستهلاكي والغول الشرائي والإدمان الإنفاقي والهوس التسّوقي من أجل أن نغلق وبشكل نهائي الملف الأسود للاستهلاك في كل بيت، وعند كل أسرة، وداخل كل مجتمع، وفي أي دولة.

إننا لو جمعنا كل ما ينفق على الأمور التافهة في صندوق موحّد، ثم أنفق هذا على إزالة أسباب المأساة من حياة الكثيرين، لصلحت الأرض وطاب العيش فيها.

وإذا تمثلت أعمالنا بالتدبير وحسن التصرف فإننا نستطيع التخلص من النقيضين وهما الإفراط في الإنفاق والاستهلاك، وحالات العوز والفقر، إذ يمكن للأول سدّ حاجات الثاني، بحيث يقترب النقيضان إلى معدل معقول.



معالجة ظاهرة الإسراف والتبذير

إن الاعتدال هو جوهر الإسلام في كل الأنشطة البشرية، فالإسلام ينهى عن التقتير كما ينهى عن الإسراف وعن الاستهلاك حباً في الظهور.

وقد حدد القرآن الكريم والسنة النبوية استهلاك المسلم بما لا يوصف بالإسراف والتبذير، بحيث تتناول الخريطة الاستهلاكية على مستوى الأفراد (المأكل، والمشرب، والملبس، والمسكن، والزينة، ووسائل التنقل، وتكاليف الزواج وأجور العمال ..) وبحيث تنضبط بمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة.

ومن ثم، فينبغي على المسلم الالتزام داخل هذه الخريطة الاستهلاكية بما يلي :

١ - الناحية الاقتصادية لا تملك المؤمن بل يواجهها بعقيدته وبخُلقه.

٢- الاستهلاك في حدود الوسط والاعتدال.

٣- تجنب الفخر والخيلاء.

٤- الابتعاد عن الحرام.

٥- ترشيد وتنظيم الاستهلاك.

٦- تناول المنتجات الاستهلاكية وادخارها عند اليسر والرخاء.

كما أن المستهلك المسلم يتحرك داخل مناطق استهلاكية محدّدة شرعاً، تتراوح ما بين الإباحة والحرمة.

أولاً: منطقة القوام (الوسطية والاعتدال):

وهي منطقة مباحة، إذا هي وسط بين الإسراف والتقتير ووسط بين الزينة والورع، وأكثر الناس لا يأخذ بها، إذ هم يميلون غالباً إلى الزينة، ويتجاوز بعضهم إلى الترف والسرف والتبذير، وأصل هذه المنطقة قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾ ﴾ (سورة الفرقان، الآية: ٦٧).

وقوله عليه السلام " كلوا وأشربوا وتصدقوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة " حديث حسن أخرجه أحمد والنسائي.

ثانياً : منطقة الزينة : (الطيبات وإظهار الغنى) :

وهي منطقة مباحة يقول تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ (سورة الضحى، الآية : ١١). ويقول عز وجل : ﴿ ۞ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (سورة الأعراف، الآية : ٣١).

ويقول رسول الله ﷺ " **إن الله يحب أن يرى أثر نعتمه على عبده** " حديث حسن - أخرجه الترمذي، ومن هذه المنطقة التحدث بالنعم والرفاهية على ألاّ يخرج المستهلك المسلم إلى منطقة الترف المنهي عنه.

ثالثاً : منطقة الورع (التقشف والزهد) :

وهي منطقة مباحة ورغم أنها منطقة محمودة، بيد أن الذين يستطيعون المكث فيها قلة من الناس، ويأتي على رأس هذه المنطقة الأنبياء عليهم السلام، والزهاد الأوائل، وقليل من المتأخرين، إذ في هذه المنطقة كثير من التضحية

بالدنيا ومباهجها ، وإيثار الآخرين على النفس ، ولو تيسر ذلك لأمكن حل المشكلات الاقتصادية ، وأصل المنطقة قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (سورة الحشر، الآية : ٩).

رابعاً : منطقة التقتير (البخل والشح) :

وهي منطقة محرمة ، فالبخيل عدو لله ، وعدو لنفسه ، وعدو لكل ما ينفع الناس ، حتى لو وصلت به الحال إلى الزهد الأعجمي وحرمان نفسه من الضروريات ، وأصل هذه المنطقة قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ (سورة محمد، الآية : ٣٨). وقوله عليه السلام : "إياكم والشح، **فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل، فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا** " حديث صحيح على شرط مسلم كما عند الحاكم في المستدرك ، وأخرجه أبو داود.

خامساً : منطقة الإسراف (التبذير والترف) :

وهي منطقة محرمة ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ (سورة الأنعام، الآية : ١٤١).

وقال عز وجل : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ (سورة الإسراء، الآيتان: ٢٦، ٢٧).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم **" إن من أشرار أمتي الذين غذوا بالنعيم، الذين يطلبون ألوان الطعام، وألوان الثياب، فيتشدقون بالكلام "** حديث صحيح، أخرجه الحاكم وأحمد.

والتبذير أشد من الإسراف، فهو مغالاة وتجاوز للحد المعروف، وتوسع في الإنفاق المحرم، وعلى المعاصي والشهوات المنكرة، كما أن الترف أشد من التبذير إذ يتوسع المرء المترف في ملاذ الدنيا وشهواتها.

وإذا انتشر الترف في الأمة أودى بها إلى الفناء، ومن هذه المنطقة إضاعة المال، والرسول الكريم ﷺ نهى عن إضاعة المال كما روى ذلك الشيخان. وانسجاماً مع أسلوب ومنطقة الاعتدال والقوام، وبعداً عن أسلوب ومنطقة الإسراف والتبذير وضع الإسلام قيوداً نوعية وكمية وقعّد قواعد حاكمة للعملية الاستهلاكية ومن ذلك :

(١) النهي عن حياة الترف : والترف هو المبالغة في التنعم، والمترف هو المتنعم المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها، والإسلام لا يحبذ الترف بل يعده سلوكاً غير سوي وسبب في نزول العذاب وهلاك الأمم ودمارها، ومؤشراً عن الابتعاد عن الطريق القويم، وعلامة على تخلخل كيان المجتمع واهتزازه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ ﴾ (سورة الإسراء، الآية: ١٦).

(٢) النهي عن الإسراف والتبذير والسفه : والإسراف - كما بيننا - هو تجاوز القصد والاعتدال في الإنفاق وهو ما دون الترف .أما التبذير فيعني إنفاق المال وتفريقه إسرافاً في غير ما ينبغي.

والسفه ضد الرشد .وقد نهى الشرع عن الإسراف والتبذير لما ينطوي عليهما من تبديد غير واعٍ لموارد الفرد والمجتمع.

(٣) الأمر بالاعتدال في الإنفاق : بحيث يكون المسلم متوازناً بين مصالح الدين والدنيا والروح والمادة .فالنهي عن الترف والإسراف والتبذير، لا يعني الدعوة إلى البخل والشح والتقتير، إنما يعني الدعوة إلى الاعتدال .لما لذلك من آثار إيجابية على الفرد والمجتمع ، فإذا كان البخل يقود إلى نقص الميل للاستهلاك ، فإن الترف والإسراف يقودان إلى تبديد الموارد وإتلافها ، وكلاهما آفة.

(٤) الابتعاد عن استهلاك المنتجات المحرمة والضارة : ويعني هذا أن تكون المنتجات من الطيبات المتصفة بالحسن والنقاء والطهارة فقد أحل الله الطيبات وحرم الخبائث. والقاعدة الفقهية تقول : لا ضرر ولا ضرار.

(٥) عدم المباهاة والخيلاء : إذ الإسلام ينظر إلى الإنفاق الاستهلاكي باعتباره قوام المجتمعات ، ومن الواجبات الاجتماعية. ومن ثمَّ ، فينبغي أن يحذر المسلم من أن يُداخل إنفاقه مباهاة أو خيلاء . قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ (سورة البقرة، الآية: ٢٦٤).

وقال رسول الله ﷺ " لا ينظر الله يوم القيامة إلى منْ جرّ ثوبه خيلاء" متفق عليه.

(٦) تذليل النفس البشرية بالجوع : لتضيق مجاري الشيطان .فالنفس البشرية إذا شبعت تحركت وجالت وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت.

وقد ورد عن جمع من العلماء والفقهاء[١] أن في الجوع فوائد جمة ومن ذلك :

أ - صفاء القلب ونفاذ البصيرة.

ب - زوال البطر والأشر.

جـ - تذكّر بلاء الله وعذابه.

د - كسر شهوات المعاصي.

هـ - المواظبة على العبادة.

و - الإيثار والتصدق بالفضل.

---

(١) ينظر : الجوع -ابن أبي الدنيا، ص٢٠-٦٠، إحياء علوم الدين - أبو حامد الغزالي، جـ٣/٩١-١٣٠.

(٧) التربية الاقتصادية : وذلك على حسن الإنتاج والكسب، وحسن الاستهلاك والإنفاق، وحسن التوزيع، وفي هذا المقام يمكن أن نستأنس بما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يربي أصحابه عليه، ومن ذلك :

(أ) التربية على أن الغنى غنى النفس : جاء في حديث أبى ذر رضي الله عنه، قول رسول الله ﷺ له : أترى كثرة المال هو الغنى ؟ قال أبو ذر : نعم، وترى قلة المال هو الفقر ؟ قال أبو ذر، نعم.فقال له رسول الله : إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب" حديث صحيح. ومعنى ذلك عدم تقبّل المال من كل سبيل، وعدم إنفاقه في كل سبيل وبأي مقدار.

(ب) التربية على العمل وكسب العيش : جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده، فقال : **"ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، منْ يستعفف يعفه الله، ومن يستغني يغنه الله ومن**

يتصبر يصبره الله " رواه البخاري. ومعنى ذلك أن الوسائل النفسية المهمة : التعفف، والاستغناء، والصبر.

أما الوسيلة المادية فهي العمل كما في حديث " **لئن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه**" رواه البخاري. ولهذا كان أهل مكة يعملون في التجارة في مكة، وبالزراعة في المدينة .

(ج) التربية على الاعتماد الذاتي والاكتفاء بالدخل الشخصي : جاء في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قول رسول الله ﷺ " **فراش للرجل وفراش لامرأته، والثالث للضيف، والرابع للشيطان** " رواه مسلم. ومعنى ذلك تقليل المصروفات حتى لا يحتاج المرء إلى الاستدانة إلى الآخرين وليكتفي ذاتياً بما عنده.

(د) التربية على العطاء : جاء في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قول رسول الله ﷺ " **اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا المنفقة والسفلى السائلة** " رواه مسلم،

ومعنى ذلك رفع المستوى الاقتصادي للمجتمع، بحيث يكثر فيه المعطون، ويقل فيه الآخذون.

هذه أهم معالم التربية الاقتصادية التي نشّأ رسول الله ﷺ أصحابه عليها، ورباهم على الأخذ بها ودعاهم إلى سلوكها فآتت ثمارها على الصحابة رضوان الله عليهم، وعلى المجتمع المسلم، وكان لها صداها في مجال الدعوة إلى الإسلام.

وحريٌّ بنا نحن أن نقتدي برسولنا ونتمثل تلك المعالم التربوية سلوكاً واقعياً وعملياً.

إن على المسلمين أن يحجموا عن أيّ نمط سلوكي يدمّر هذه القيم والمعالم والآداب. فأيّ نفقة بنية التباهي أو إظهار الأبهة أو الخيلاء، لا بد وأن يكون من شأنها توسيع الهوة الاجتماعية بين الأغنياء والفقراء في المجتمع المسلم الواحد.

إن نمط الإنفاق السليم والمتفق مع الآداب الشرعية هو ذلك الذي يحكي البساطة والتواضع والاعتدال. ولا يعني ذلك عزوف المسلمين عن الاستفادة من دخلهم، أو من

الموارد التي امتن الله بها عليهم، لسد حاجاتهم أو عن تزويد أنفسهم بأسباب الراحة.

لكن الإسلام يتطلب إعطاء الاستهلاك جدوى وجودة أعظم .كما يأمر بتجنب أسلوب الحياة القائم على الغرور والخداع، لإشباع الميل الشديد إلى تقليد الآخرين.

إن المنافسة غير الصحّية على رموز الأبهة والمصحوبة بعدد من العادات، لا سيما في مناسبات الزواج، إنما تؤدي إلى الإنفاق المفرط الذي يتم تمويله إما بتعطيل استثمار ما سبق ادخاره أو بمنع ادخار المستقبل.

ولا تلبث العدوى أن تصيب كل المناخ الاجتماعي .إن المسلم مطالب بالاعتدال والتوازن والابتعاد عن كل مظاهر الفساد والترف والإسراف والتبذير، آفات المجتمعات.

❁ ❁ ❁

الدراسة الثالثة:

الفقر والفقراء

هذا البحث دراسة عن الدلجي رحمه الله وكتابه "الفلاكة والمفلوكون " أي الفقر والفقراء.

سبب اختيار هذا الكتاب :

اخترت هذا الكتاب لأسباب منها :

(١) الكتاب الآن محل اهتمام ومناقشة من الاقتصاديين الذين يهتمون بالاقتصاد الإسلامي خاصة.

(٢) قضية الفقراء وظاهرة الفقر من أهم الموضوعات التي ينبغي أن نهتم بدراستها في عالمنا الإسلامي المعاصر، ودراسة كتاب الدلجي إحدى صور الاهتمام بهذا الموضوع.

(٣) على الرغم من اكتساب هذا الكتاب تلك الأهمية بَيْدَ أن الدراسات عنه غير كافية.

فرضية البحث :

الفرضية التي يحاول هذا البحث إثباتها من خلال تحليل كتاب الدلجي هي أن المفكرين المسلمين قدموا مساهمة مهمة في الفكر الاقتصادي .ولذا يحاول هذا البحث الكشف عن طبيعة المساهمة الخاصة التي يمثلها الفكر الاقتصادي للدلجي .إن كتابه دراسة اقتصادية عن الفقر والفقراء، ويستهدف البحث الكشف عن إطار صياغته الاقتصادية لهذا الموضوع، وطبيعة الفكر الاقتصادي الذي قدمه في هذا المجال.

خطة البحث :

الخطة التي تقترح لهذا البحث بحيث تخدم العمل على فرضية البحث تشتمل على المباحث التالية :

المبحث الأول : ويخصّص لتقديم دراسة عن الدلجي وكتابه، مع محاولة تصنيف الكتاب اقتصادياً بالشكل الذي يخدم تحليله.

المبحث الثاني : ويخصّص لعرض أهم الأفكار الاقتصادية التي تحدث عنها الدجلي في كتابه.

المبحث الثالث : ويخصّص لاستعراض أهم التوصيات التي كتبها المؤلف " الدجلي ".

وفي الخاتمة : تتم الإشارة إلى بعض النتائج المتوصل إليها من خلال المباحث السابقة.



المبحث الأول : المؤلف والكتاب وتصنيفه الاقتصادي

أولاً : المؤلف :

مؤلف كتاب الفلاكة والمفلوكون هو أحمد بن علي بن عبد الله شهاب الدين الدلجي ولد في عام ٧٧٠ هـ، الموافق ١٣٦٨ م، في مدينة دلجة، وتوجد هذه المدينة في الجزء الجنوبي من مصر الذي يسمى صعيد مصر .يقول الزركشي عنه : أنه فاضل مصري، تعلم في مصر، واشتهر بدمشق، اشتغل بالفلسفة.له كتب كثيرة، منها : الفلاكة والمفلوكون، وفوائد على شرح البخاري، والجمع بين الوسيط والخادم.

وإتماماً للتعريف بالدلجي رحمه الله ولخدمة هدف البحث نذكر ما يلي :

(١) عاش الدلجي رحمه الله في مصر في الفترة من ٧٧٠ هـ إلى ٨٣٨ هـ وهو بهذا عاش في الفترة المعروفة في مصر باسم عصر المماليك الجراكسة، الذين حكموا مصر

في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، وامتد حكمهم إلى سنوات من القرن السادس عشر.

(٢) حياة الدلجي رحمه الله من حيث اليسر أو الفاقة، ومن حيث النباهة وعلّو الشأن أو الضعف، هذه الحياة غير معروفة، إذ لم يكتب عنه إلا نفر قليل، ويذكر من أهم صفاته الخلقية مهارته في الفهم وصحة عقله وذهنه، على عكس ما توقعه الأستاذ الدكتور محمد صالح في مقالته " الفكر الاقتصادي العربي في القرن الخامس عشر الميلادي " حيث وصف الدلجي ببلادة الذهن وتخلفه عن زميله ابن خلدون وكذا زميله المقريزي.

وقد نُسب إليه عدم التديّن، حتى رُمي بالزندقة وأُهدر دمه عدة مرات .تولى وظيفة الشهادة وهي وظيفة مهمة في عصره وفي العصور السابقة له، وتدل على فضل من يتولاها وقوة شخصيته، وقد هيأت له الوظيفة فرصة الشهرة والوصول إلى الغنى..

(٣) لم يحظ الدلجي - رحمه الله - بشهرة، بل إن اسمه غير معروف، ولم يُتداول اسمه ولا كتابه إلاّ حديثاً،

وفي محيط محدود، وهو محيط المهتمين بالاقتصاد الإسلامي أو الفكر الاقتصادي العربي .ومما يذكر أن الدلجي - رحمه الله - كتب كتابه في القرن الخامس عشر الميلادي .ويتداول بين الباحثين أسماء برزت في هذا القرن، منهم ابن خلدون، والمقريزي، والعيني رحمهم الله، ولكن الدلجي - رحمه الله - لم ينل هذا الحظ من التداول.

مع أن تحليل ما كتبه سيجعله يقع في موقع فكري ليس بعيداً عنهم، أو ليس أقل منهم.



ثانياً : الكتاب :

اسم كتاب الدلجي رحمه الله الذي يُهتم به هو الفلاكة والمفلوكون أي الفقر والفقراء.

والسؤال هنا : لماذا سمّى الدلجي رحمه الله كتابه : "الفلاكة والمفلوكون"؟.

حول التسمية : قال الدلجي رحمه الله في مقدمة كتابه : المفلوك وفي لغة الأعاجم يريدون بها " الرجل غير المحظوظ المهمل في الناس لإملاقه وفقره " ص٧.

ولم ترد في صحاح الجوهري ولا في القاموس للزبيدي، ولكن مع ذلك يرى الدلجي رحمه الله أن هناك قرباً بين ما في القاموس من قوله : " فلك تفليكاً إذا لجّ في الأمر، فإنه يمكن أن يجعل مصححاً لهذا الاستعمال، وبيانه أن اللجاج لازم للإملاق، فإنه يلزم من الإملاق وعدم الحظ اللجاج، فيكون من باب إطلاق اللازم وإرادة الملزوم " ص٧.

والدلجي رحمه الله يرد على اختياره هذا بقوله : "هومع ما فيه من التكلف مردود، بأن فعل تفعيلاً لا يصح، أن يكون اسم المفعول منه بزنة مفعولاً" .يقول الدلجي رحمه الله : " والذي نراه أنه مأخوذ من الفلك الذي هو جسم محيط بالعالم، فكأن الفلك يعارض غير المحظوظ في مراده ويدافعه عنه "ص٧ .

إذن : لماذا اختار الدلجي رحمه الله " الفلاكة دون الاملاق أو كلمة الفقر؟!. يجيب الدلجي رحمه الله السؤال بقوله :" إن الألفاظ الثلاثة : الإملاق والفاقة والفقر ونحوها نص صريح في مدلولها بخلاف لفظة "الفلاكة والمفلوك" فإنه يتولد منها بمعونة القرائن، معان لائقة بالمقامات على كثرتها ونفادتها " ص٨.

لقد اتبع الدلجي رحمه الله في بحثه هذا المنهج العلمي الدقيق للبحث مستخدماً المشاهدة والبراهين والإستقراء، وقد تجلّى في أسلوب الكتاب خُلُق العالم تواضعاً وعرفاناً بقدره وحدوده وإمكاناته، يقول :" أنا أعتذر عما لا يصيب الغرض، ولا يوافق الغرض.. "ص٤.

والكتاب يتناول موضوع الفلاكة - الفقر - وأوضاع المفلوكين - الفقراء - بمعنى أنه يتحدث عن قلة الحظ الدنيوي وما يتسم به صاحبه، والأسباب التي تجعل من هؤلاء أغلبية الجنس البشري.

فتناول الدلجي رحمه الله في كتابه هذا سبب تأليف الكتاب ومعنى الفلاكة والمفلوكون، ثم بعد ذلك فصّل القول في دحض الشبه والتعليلات التي يتعلل بها المفلوكون للإبقاء على فلاكتهم .وبعد ذلك تحدث عن الآفات والنتائج السيئة التي تنشأ عن الفلاكة، ثم حاول أن يرى الأكثر لصوقاً بالفلاكة فذهب إلى أنهم العلماء، فعقد فصلاً لبيان أسباب الفقر، وفصلاً آخر بيّن فيه استلزام الفلاكة المالية للفلاكة الحالية المعنوية.

ثالثاً : التصنيف الاقتصادي للكتاب :

كتب الدلجي رحمه الله عن الفقر وعن الفقراء، ولم تكن كتابته تفريعاً على كتابته في موضوع أو موضوعات أخرى، إنما الفقر والفقراء هو الموضوع المستهدف وحده

الذي كتب عنه، بل أبلغ من ذلك أنه كتب ما كتب مخاطباً به الفقراء، يقول: " منحتكم يا معشر إخواني المفاليك كتاباً بديع المثال، منسجماً على غير منوال، مخترعاً من غير سابقة مثال، مسلاةً وتمثلاً وحكماً وإعالاً، تتخذونه مفاكهة وأمثالاً، وتصرفون به في ظنونكم رداً وإعالاً، وتنزعون به أيديكم من ربقه انتزاعاً، وترفعون به نحو الأغراض والمقاصد شراعاً ... " ص٤.

وذِكْرُ سببِ كتابته يؤكد أنه قصد الكتابة عن الفقر والفقراء، وأنه خاطبهم بما كتب " لأن سائلاً سأل عن السبب في غلبة الفلاكة والإهمال على نوع الإنسان، فصادف مني نشاطاً للكلام في ذلك نفثة مصدور، وضربة موتور، وناراً ساكنة القمها حطباً، دعوة وافقت إرادة ومطلباً ... " ص٤.

ثم إن عنوان الكتاب وتتبع موضوعاته جملةً وتفصيلاً يثبت أن الكتاب كله دراسة في الفقر والفقراء.

والتصنيف الاقتصادي للكتاب يعني تحديد الفرع الاقتصادي الذي يتصل به، وكتاب الفلاكة والمفلوكون صنّف على إنه دراسة في اقتصاديات الفقر.

الفقر والفقراء واحدة من الموضوعات القديمة من حيث الاهتمام بها، ولكن الاهتمام بها كدراسة اقتصادية يُعدُّ حديثاً نسبياً،

بل قد يكون حديثاً جداً، وتحمل هذه الدراسة العنوان اقتصاديات الفقر. والمتتبع للكتب التي تصدر في الاقتصاد في البلاد الأوروبية والأمريكية يجد أن اقتصاديات الفقر موضع اهتمام واسع.

إن المجتمعات التي تتبع نظام الاقتصاد الحر تعاني من التفاوت الحاد في توزيع الدخول والثروات، بالرغم مما أحرزته من تقدم اقتصادي واسع .ومع ذلك فإن الفقر يفرض نفسه كموضوع للاهتمام في هذه المجتمعات.

وقد دخلت البلاد المتخلفة أيضاً إلى دائرة الاهتمام بدراسة اقتصاديات الفقر .وحدث ذلك بتوجيه الدراسات الاقتصادية التي تُعمل عن هذه المجموعة من البلاد إلى الاهتمام باقتصاديات الفقر.

ولقد تناول الدلجي رحمه الله بعض المسائل التحليلية والنظرية التي تحتل أهمية كبيرة في عالم الاقتصاد، مما يعني أن الدلجي رحمه الله كان أحد المنظِّرين الأوائل لعلم الاقتصاد سابقاً بقرون عدة آدم سميث وتلامذته ونظراءه .ونشير في المبحث القادم إلى بعض الأفكار الاقتصادية للدلجي.



المبحث الثاني :الفكر الاقتصادي للدلجي :

أولاً : الدخل والإنفاق والعلاقة بينهما :

يقول الدلجي رحمه الله : " وأيضاً يقال على وجوه المعاش الثلاث - الزراعة والتجارة والصناعة - أنه كلما تجدّد للإنسان دخلٌ جدّد له صرفاً إما للمباهاة والترفع على أمثاله أو إفراطاً في الشهوات وإنهماكاً في اللذات، أو خوفاً من سوء القالة والأحدوثة، أو لأن الحالات المتجدّدة في دخله يلزمها تجدّد أمور صرفه فلا يزال الشخص مفلوكاً... " ص٥٩.

يرى الدلجي رحمه الله أن الدخل يجب أن يكون أكبر من الإنفاق ولكن الواقع شئ آخر، حيث إنه كلما زاد الدخل زاد الاستهلاك، وزيادة الاستهلاك لزيادة الدخل قد تكون شيئاً طبيعياً، وقد يكون نتيجة عوامل غير رشيدة، وعلى أية حال فالواقع الذي يصفه الدلجي رحمه الله وهو كلما تجدد للإنسان دَخْلٌ جدّد له صرفاً وإنفاقاً،

هو أمر متفق عليه بين كل الناس عامة ، والاقتصاديون بصفة خاصة.

ولكن ما هي العوامل المسؤولة عن زيادة الإنفاق ، نتيجة زيادة الدخل ؟! سؤال طرحه الدلجي رحمه الله وأجاب عليه بقوله إنها عوامل عدة ، وذكر منها :

أ- المباهاة ، والترفع عن الأمثال.

ب- الإفراط في الشهوات.

ج- الإنهماك في اللذات

د - الخوف من سوء القالة.

هـ - الحالات المتجدّدة في دخله يلزمها تجدّد في أمور صرفه.

وهذه الأمور الخمسة التي لا يقصد بها الحصر في الإنفاق ، حيث يترتب عليها أن يبقى الشخص مفلوكاً مهملاً شؤون دخله.

أي أن الاستهلاك متغير تابع للدخل ، وهذا ما أكدته النظرية الاقتصادية الحديثة على يد كينز ومن بعده.

ويضاف إلى ذلك أن الدلجي رحمه الله بيّن أن العوامل المسؤولة عن زيادة الاستهلاك بجوار الدخل أنها البدائل الاجتماعية والعوامل النفسية وعوامل أخرى كالمباهاة والترفّع على الأمثال، وهناك الاستهلاك الترفي وهناك الخوف من البخل.

وبعد، أفلا يكون الدلجي رحمه الله بذلك قد سبق كينز، ودوزنبري - صاحب نظرية الدخل النسبي - وغيرهما من قادة النظرية الاقتصادية الكلية بقرون عديدة..

ودلالة أخرى تؤخذ من النص السابق تتعلق بالفائض الاقتصادي، حيث أبرز الدلجي رحمه الله في ذلك النص، أهمية توافر الفائض، وتزايده في محو الفقر والتخلف، وأبرز ثانياً تعدد العوامل والاعتبارات النفسية والاجتماعية والاقتصادية التي تحدّد الميل للاستهلاك..



ثانياً : الادخار والاستثمار :

بالرغم من أن الدلجي رحمه الله لم يدرك الفوائد الحقيقة للادخار على مستوى الأفراد وعلى مستوى الأمة، فقد أيّد ميل الإنسان له، لأسباب متعلقة بنفسية الإنسان وأدائه لواجباته الدينية وأنَّ ذلك سيريح الإنسان ويساعده في التقرب من دينه، حين يقول: " فمن انزعج قلبه بترك الادخار واضطربت نفسه وتشوشت عليه عبادته وذكره، واستشرق إلى ما في أيدي الناس، فالادخار أولى له... " ص١٤.

ولقد كان موقف الدلجي رحمه الله أكثر حسماً ووضوحاً في أهمية الاستثمار، من حديثه عن الادخار، فهو يدعو إلى استثمار الأموال وعدم تركها دون تشغيل، ويحارب في ذلك الاكتناز منسجماً مع تعاليم الدين ومعتقداً بأن الاكتناز مخالف للعقل السليم فيقول : " إنه لا جائز أن يكون ادخار المال في الأرض لا لغرض، بأن يوضع تحت الأرض عبثاً لتأكله الأرض ويذهب سُدى، فإن ذلك خلاف صريح للعقل.." ص٣٤.

هاتان الفقرتان في وجوب الادخار والاستثمار أكدها الفكر التقليدي منذ نهاية القرن الثامن عشر على لسان كبار مفكريه من أمثال: سميث وريكاردو ومالتوس وساي وستيوات ميل، وكذلك فقد جاء بعد عام ١٩٣٦م جون مينارد كينز ليؤكد أهمية الاستثمار من أجل زيادة الدخل وما يخلفه من زيادة في الطلب الكلي والعمالة.



ثالثاً : التعاون وتقسيم العمل :

يقول الدلجي رحمه الله : " الإنسان مدني بالطبع ، لا يمكنه أن يستقل بنفسه منفرداً عن الآخرين بحيث لا يستعين بأحد في حاجاته وضروراته ، بل لا قوام لأحواله إلا بالتعاون حتى إن الرغيف من الخبز لا يصير رغيفاً إلا بآلات وأعمال تفتقر إلى صناع كثيرين كثرة بالغة .."ص٢٤.

يرى الدلجي رحمه الله أن الإنسان مدني بطبعه لا يمكن أن يعيش بمفرده ، بل هو محتاج إلى الآخرين ، ولذا فهو لا بد وأنْ يتعاون مع غيره حتى يحصل على معاشه . ومن كلام الدلجي رحمه الله نرى أن الاجتماع أدى إلى تقسيم العمل ، بحيث يقوم كل فرد بنوع خاص ، ومن مجموع هذه الأعمال يتم المقصود ، وهو حاجة الفرد ومطالبه.

ومن قبل طرق هذا الباب بعض العلماء كالفارابي وأبي الفضل الدمشقي وابن سينا وابن خلدون رحمهم الله ، إلا أن الدلجي رحمه الله أوضح بشكل منطقي علاقة المدنية والاجتماع بالمفلوكين ، وأبان أن كثرة اجتماع المفلوكين مع بعضهم البعض فيه ضرر.



رابعاً : وجوه المعاش :

قسم الدلجي رحمه الله وجوه المعاش إلى :

(١) وجوه طبيعية، وهي التي تكتسب من التجارة والزراعة والصناعة والمعاش من الأموال الموروثة وخدمات العلماء.

(٢) وجوه غير طبيعية، وهي التي تلتمس من الاشتغال بالكيميا والمطالب والتنجيم والدلالة لغير المشهود والشهادة لغير المعروف.

وهذا التقسيم في ذاته صحيح، ويتفق في جملته مع التقسيم الذي أخذ به كارفر في كتابه " أصول الاقتصاد الزراعي " حيث قسم وجوه المعاش إلى وجوه غير اقتصادية (غير طبيعية) ووجوه اقتصادية (طبيعية).

وقد أوجز الدلجي رحمه الله في كلامه على كل فرع من الفروع السابقة، وبين ما يعترضه من الصعاب والآفات، وأبان عن سبب غلبة الفقر على النوع الإنساني، والحقيقة أنه عالج موضوع الإنتاج وذكر الصعاب التي تعترض كل منتج في دائرة عمله..

(أ) التجارة (من وجوه المعاش الطبيعية) : واقتصر الدلجي رحمه الله على بيان شروط معالجة التجارة، ومنها :

١- توافر رأس المال الكبير.

٢- أن يكون التاجر ذا بصيرة تامة ودراية وافية وتجربة كاملة.

٣- أن يكون التاجر ذا فراسة صادقة وحدس صحيح.

٤- شمول الطمأنينة واستتباب الأمن. ص٥٨.

(ب) الزراعة (من وجوه المعاش الطبيعية) : واكتفى الدلجي رحمه الله ببيان عوارض الزراعة، ومنها :

(١) عوارض سماوية : البرد والهواء المفرطين، وانقطاع المطر، وشدة الحر، ومجيء الجراد المنتشر.

(٢) عوارض فنية : سوء النبت، وسباخة الأرض، ونبات الأشياء المضرة خلال الأشياء المطلوبة.

(٣) عوارض اقتصادية : رخص البقول والخضروات وما في معناها مما لا يقبل الادخار، وغلاء البذور.

(٤) عوارض أخلاقية : خيانة العمال الزراعيين.

(٥) عوارض حكومية : تسليط الظلمة عليهم واستعبادهم، فرض الفرائض، وانواع الظلامات ..ص٥٩.

ج- الصناعة (من وجوه المعاش الطبيعية) : ويستفاد مما كتبه الدلجي رحمه الله أن من عوارض الصناعات العملية مايلي :

١. انعدام الحذق والدراية.
٢. الكساد.
٣. تنافس العمال.
٤. حرمانهم من الرفاهية.
٥. انعدام التضامن.
٦. كثرة الشركاء.
٧. انعدام تكوين رؤوس الأموال..ص٥٩.

وجوه المعاش غير الطبيعية :

لقد تعلق الناس في القرون الوسطى بأسباب صعبة جداً وغريبة للحصول على معاشهم، كالاشتغال

بالكيميا والتنجيم والمطالب، أو أسباب غير مشروعة، كالشهادة لغير مشهود والدلالة لغير معروف.

وقد علل الدلجي رحمه الله سبب تعلق الفقراء بهذه الأسباب بأنه إذا أخفقت مساعيهم وعجزهم عن المعاش الطبيعي، والتعلق بالأسباب المقيسة المطردة، ودهشوا وتحيروا وعميت عليهم الأنباء وتعلقت نفوسهم بالدنيا ولذتها، تمنوا الأماني وقنعوا بمخادعة الإملاق بالمواعيد الكاذبة واستنشقوا الغنى من حيث لا تهب ريحه، وأتوا السعادة من غير أبوابها، ويفضي بهم الأمر إلى أن يكونوا أرسخ قدماً في الفلاكة والإدبار، ويصيروا أئمة الفلاكة وينابيعها ومأواها ..ص٦٠.

وإذا كان الدلجي رحمه الله تناول الإنتاج بالشرح والبيان، فإنه لم يتعرض لموضوع التوزيع، أي كيفية توزيع الدخل بين الناس، وأسباب تفاوته، وهو موضوع الفقر والغنى. وقد وقع في هذا الخطأ التجاريون في القرن السابع عشر. بل إنه حتى بعد قيام الصرح الاقتصادي، لم يعن الاقتصاديون ببحث موضوع تفاوت أنواع الدخل بين

الناس، مع أنه الموضوع الرئيسي لعلم الاقتصاد، وأخيراً تناول توسيج هذا الموضوع المهم في كتابه " أصول الاقتصاد " حيث أرجع هذا التفاوت إلى سببين وهما :

(١) الفروق الطبيعية في المواهب والكفايات.

(٢) بقاء المزايا المكتسبة بواسطة البيئة والميراث.



خامساً : بين ابن خلدون والدلجي :

ابن خلدون والدلجي رحمهما الله من علماء الاقتصاد المسلمين ويُعدُّ كل منهما رائداً لهذا العلم غير أنهما ليسا بمكانة واحدة، بل هناك أوجه شبه بينهما، وأوجه اختلاف، ومن هنا أردنا أن نعقد هذه المقارنة لبيان أوجه الشبه والاختلاف بينهما.

أوجه الشبه :

(١) عاش ابن خلدون رحمه الله في مصر في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، وأوائل القرن الخامس عشر وكذلك عاش الدلجي رحمه الله.

(٢) عاش كل منهما في عصر المماليك، وكان هذا العصر يمتاز بكثرة المنازعات الداخلية بين الحكام المماليك.

(٣) طرق الدلجي رحمه الله بعض مواضيع تشبه ما جاء في كتابات ابن خلدون مثل الكلام عن طرق المعاش الطبيعية وغير الطبيعية، والحديث عن الزراعة والتجارة والصناعة، وكذلك ابن خلدون رحمه الله طرق هذه الأبواب..

أوجه الاختلاف :

(١) يمتاز ابن خلدون رحمه الله بكثرة تنقلاته بين الدول المتعددة في عصره مثل الأندلس وبلاد الغرب ومصر والشام.

(٢) كتب ابن خلدون رحمه الله تاريخ حياته بنفسه ، فأمكن للمؤرخين الوقوف على حياته ، بينما لم يترك الدلجي رحمه الله شيئاً عن تاريخه ، فغمض بذلك على الناس معرفة تاريخه.

(٣) يُعدُّ ابن خلدون رحمه الله رائد علم الاجتماع بينما نرى الدلجي رحمه الله رائداً من رواد التنمية.

(٤) هناك كثير من الموضوعات الاقتصادية لم يطرقها الدلجي رحمه الله بينما طرقها ابن خلدون رحمه الله مثل النقود والأسعار والسكان.

(٥) كتب الدلجي رحمه الله عن تاريخ بعض العلماء وضمنها في كتابه ، بينما لم يكتب ابن خلدون عن أحد من العلماء إلا عندما يتخذه مرجعاً للكتابة.



سادساً : ما يؤخذ على الدلجي :

(أ) يمكن أن يوجَّه للدلجي رحمه الله بعض المآخذ عند كلامه عن الزراعة مثلاً ، ومن ذلك :

١- لم يتكلم الدلجي رحمه الله عن أثر الزراعة في الاقتصاد الوطني.

٢- لم يتكلم الدلجي رحمه الله عن علاقة كل من الصناعة والتجارة بالزراعة.

٣- هل الضرائب على الزراعة كانت قيمية أم نوعية.

٤- نوع تدخل الحكومة في الشؤون الزراعية.

(ب) لم يتعرض الدلجي رحمه الله للمعاش الموروث بخير أو شر ، فكان في موقفه هذا كمعظم الاقتصاديين ، حيث أخذوا قضية مسلّمة بنظام الملكية المتعارف في زمانهم ووطنهم ، واعتبروه من العوامل الثابتة التي ترتكز عليها نظرياتهم ..

(ج) أنه إن وُفّق الدلجي رحمه الله في تحليله لبعض العوامل المسؤولة عن الإعانة على وجوه الفقر والفقراء ،

وخاصة ما يتعلق بالعوامل الاقتصادية في المجالات التجارية والزراعية والحرفية، بَيْدَ أن تحليله لم يتناول عوامل كثيرة هي في الواقع مسؤولة في الدرجة الأولى عن نشوء الفقر ولها أهميتها، ومن ذلك :

(١) الكوارث الطبيعية.

(٢) المعاصي ومن أكبرها " الربا ".

(٣) تظالم الناس فيما بينهم واستئثار القوي بحق الضعيف.

(٤) الحروب.

(٥) النكسات أو الدورات الاقتصادية.

(٦) العاهات الخلقية.

إضافة إلى كسل الإنسان، وابتلاء الله للإنسان ...

ومع هذا يبقى الدلجي رحمه الله رائد التنمية، ويكفي أن نعلم أن هذا المجال لم يطرقه البحث العلمي الجاد في الغرب إلا في النصف الثاني من القرن العشرين.



المبحث الثالث : توصيات الدلجي

عقد الدلجي رحمه الله الفصل الثالث عشر (ص١٤٥-١٤٨) لما أسماه : في وصايا يُستضاء بها في ظلمات الفلاكة. ويعني ذلك أن هذا الفصل هو توصيات يختم بها ما كتبه. إن الدراسات الحديثة، وخاصة الرسائل والأبحاث العلمية، تُعطي أهمية كبرى للتوصيات، وذلك لأنها تجعل البحث قابلاً للتطبيق والاستفادة منه، والدلجي رحمه الله بختمه كتابه بتوصيات، جعل دراسته تناظر أحدث الدراسات، بل قد يكون له فضل السبق والريادة التاريخية.

التوصيات التي أوصى بها الدلجي رحمه الله ليستضاء بها في ظلمات الفلاكة، على حد تعبيره، أو ليعالج بها الفقر، على حد التعبير الحديث، يمكن تجميعها في مجموعات :

المجموعة الأولى : وتعمل هذه المجموعة على مستوى العقيدة، أي المستوى الإيماني، ومن أمثلة ما قاله في ذلك "إياك والتعويل على واحد بخصوصه من البشر وإلقاء

السرائر عليهم، فإن من ألقى سرائره على غير الله وكله وما اختاره لنفسه ..." ص١٤٦ " كن تواباً رجاعاً أواباً إلى الله عظيم الالتفات إليه والاستعانة بقوته ..." ص١٤٦ "كن كثير الدعاء باسمائه تعالى وله الحمد" ص١٤٦.

المجموعة الثانية : وتشمل هذه المجموعة الأخلاقيات التي أوصى بها الدلجي رحمه الله، وهذه العناصر الأخلاقية تعمل على مستوى أقل من المستوى الذي تعمل عليه العناصر العقائدية، ومن أمثلة هذه العناصر الأخلاقية التي ذكرها الدلجي رحمه الله " سع الناس بأخلاقك ومعارفك إن لم تسعهم بمالك ومعروفك واجتنب الإساءة إن عجزت عن الإحسان لهم..." ص١٤٥ "تحقّق أن المعاصي كالسموم يضر قليلها وكثيرها . إن للطاعات عبقاً وشذاً يفوح على أهلها وإن كتموها..."ص١٤٦.

المجموعة الثالثة : وتعمل هذه المجموعة على تحبيب العلم والسعي للتزود به ومنه، ومن أمثلة هذه العناصر "انظر كيف يكون استجلاء لطائف العلوم شاغلاً عن

الأكل..." ص١٤٥ " إن في الكمالات النفسية لذة تزيد على اللذات الجسدية..." ص١٤٥ " عليك من العلوم بالكتاب والسنة، والتمتع بما فيها من النكات واللطائف واستمد منها برد اليقين وثلج الصدور..." ص١٤٥.

المجموعة الرابعة : وتعمل هذه المجموعة على تحبيب المال، ومما قاله الدلجي رحمه الله في ذلك : " لله در من سمّى المال كمال الكمالات ..."ص١٤٦.

المجموعة الخامسة : وتعمل هذه المجموعة على دعوة الفقير للعمل وانتهاز الفرصة. ومما قاله الدلجي رحمه الله في ذلك : (لا تكن وكلاً بل متحركاً كيساً ، ورقّع خرق عجزك وفلاكتك بحيلتك ومصابرتك والتعرض لتنفيسات الدهر ، والوثوب عند الفرصة ولا تيأس من روح الله) ص ١٤٥ - ١٤٦

وبعد عرض توصيات الدلجي رحمه الله لعلاج الفقير والفقر، نذكر ملاحظتين مهمتين :

الأولى : يعرف في الاقتصاديات المعاصرة الكثير من علاج سياسات الفقر، بعضها يعمل على إعادة توزيع

الدخل، وبعضها يعمل على إعادة توزيع الثروة، وبعضها يعمل على غير ذلك مثل الأسعار.

وما قاله الدلجي رحمه الله لا يعني إلغاء هذه السياسات أو العمل على بدائل لها، وإنما هو عرض عناصر رأى أنها يمكن أن تعمل لعلاج الفقر والفقير، وترك الباب إلى عناصر أخرى يمكن أن تعمل أيضاً.

الثانية : وصايا الدلجي لعلاج الفقير في دينه، وفي نفسه، وفي خلقه، تعمل أيضاً على علاج الفقر، بينما عبارة علاج الفقر - كما هي عند الاقتصادات المعاصرة - لا تشمل الفقير، إنما تنصب على الفقر وحده.

وهذا يؤكد على أن الإسلام يتّجه لشيئين الفقير والفقر، أي يرى العنصر الإنساني والعنصر المادي في المشكلة، أو بمعنى آخر يرى قضية الفقير، وظاهرة الفقر.



الخاتمة

تُخصّص هذه الخاتمة لاستعراض نتائج البحث، وبسبب أن البحث انتهج أسلوب المقابلة ما أمكن ذلك بين الفكر الاقتصادي الإسلامي من خلال كتاب الدلجي رحمه الله، والفكر الاقتصادي الوضعي من خلال نظمه ومدارسه، فإن البحث سيعرض نتائجه في إطار هذه المقابلة.

أولاً : البعد التاريخي : دراسة اقتصاديات الفقر في علم الاقتصاد هي من الدراسات الحديثة نسبياً، إذ أنها لم تعرف على هذا النحو الواسع إلا في حوالي الخمسينات من القرن العشرين وإن كانت مساهمة راونتري لدراسة الفقر، تعود إلى بداية القرن العشرين، بَيْدَ أن علم الاقتصاد لا يرتبط كثيراً بهذه المساهمة، ويشير إليها باعتبار ما لها من أهمية تاريخية وليس للأهمية الموضوعية.

أما كتاب الدلجي رحمه الله فيرجع تاريخياً إلى القرن الثامن الهجري (أي الفترة من ١٤١٢ إلى ١٤٢١ م). ويعني ذلك أن هذا الكتاب يرجع إلى بداية القرن الخامس عشر الميلادي.

وبناء على هذا فإن تاريخ دراسة اقتصاديات الفقر في إطار الفكر الإسلامي يرجع إلى القرن الخامس عشر الميلادي.

وقد استخدم البحث مصطلح اقتصاديات الفقر. وذلك لإبعاد معنى قد يرد وهو أن الدراسة أو الاهتمام بالفقر لم توجد في الإسلام قبل القرن الخامس عشر، إذ أن الاهتمام بالفقر كما أن الدراسة عنه بدأت منذ صدر الإسلام، فاهتمام الإسلام بمشكلة الفقر معروف في القرآن والسنة، لكن ما يسعى البحث إلى التأريخ له هنا هو دراسة اقتصاديات الفقر، وليس دراسة الفقر في حد ذاته.

لهذا نستنتج أن دراسة اقتصاديات الفقر في الإسلام تبدأ بكتاب الدلجي رحمه الله، ومن ثم فقد تكون دراسة اقتصاديات الفقر في إطار الفكر الإسلامي تسبق نظيرتها في

عالم الاقتصاد بحوالي خمسة قرون ونصف، وهذا إذا اعتبرنا أن هذه الدراسة تعود تاريخياً إلى حوالي الخمسينيات - وهي دراسة راونتري - من القرن العشرين. وعلم الاقتصاد نفسه يرتبط بهذا التاريخ..

ثانياً : البعد المنهجي : كتب الدلجي رحمه الله عن الفلاكة والمفلوكين، أي أنه كتب عن الفقر والفقراء . وإذا قارنا هذا بما جرى ويجري عليه العمل في علم الاقتصاد نجد أن علم الاقتصاد حين يكتب فإنه يكتب عن الفقر وحده، ويثبت ذلك مراجعة عناوين الكتب والأبحاث التي كتبت عن الفقر في علم الاقتصاد.

إن العناوين التي عُنونت بها هذه الدراسة تدور حول الآتي: الفقر، اقتصاديات الفقر، مشكلة الفقر، قياس الفقر، ويعني ما تقدم أن الفكر الاقتصادي الإسلامي يعتبر بُعدين في الفقر : البعد الأول هو الفقر، وهذا هو البعد المادي في مشكلة الفقر، والبعد الثاني هو الفقير، وهذا هو البعد الإنساني في مشكلة الفقر، ويكون الاقتصاد الإسلامي بأخذه البعدين في الاعتبار، لم ينظر إلى الفقر

كمشكلة مادية في حد ذاتها ، وإنما ينظر إليها كمشكلة مادية مربوطة إلى العنصر الإنساني الذي تقع عليه.

ثالثاً : البعد التحليلي : يتبين من تحليل كتاب الفلاكة والمفلوكين أن مؤلفه ناقش ظاهرة الفقر والفقير في ارتباطها مع الظواهر المتصلة بها ، سواء أكانت ظواهر اقتصادية أم غيرها ، لهذا يكون الدلجي رحمه الله بحث المشكلة بأسلوب التحليل الكلي. وكتاب الدلجي رحمه الله بإتباعه هذا الأسلوب يملك تفوقاً ، ذلك أن التحليل الكلي يتفوق على التحليل الجزئي ، الذي شوه علم الاقتصاد وجعل القوانين الاقتصادية تكتشف وتعمل على الوحدة المتناهية في الصغر..

رابعاً : التفوق الكلي الشمولي : كتب الدلجي رحمه الله عن الفقر وعن الفقراء ، كما كتب عن عناصر أخرى يعتقد أن لها ارتباطاً بموضوع الكتاب ، فكتب عن توفير الأعمال وما يتعلق به ، وكتب عن التاريخ وكان يعود دائماً للاستشهاد التاريخي ، وكتب عن علم النفس ،

وكتب فقرات تتعلق بالجغرافية البشرية ، وكتب عن علم المنطق ، وكتب عن الحضارات ، وكتب عن الطب.

هذه هي فروع المعرفة أو الموضوعات التي كتب عنها الدلجي رحمه الله وهو يكتب عن الفقر وعن الفقراء.

خامساً : تفوق في منهج البحث : خصّص الدلجي رحمه الله الفصل العاشر والحادي عشر من كتابه ليقدّم فيها نماذج أو أمثلة على الفقراء . وتوسع في عرض الفصلين بحيث أنهما يستوعبان نصف الكتاب تقريباً ، وبلغ عدد الأشخاص الذين كتب عنهم مائة وثمانية وثلاثين شخصاً.

وجعل الدلجي رحمه الله دراسته تشتمل على جزء عن التنظير وجزء عن التطبيق ، وهذا هو أحد عناصر تفوق منهج البحث عند الدلجي رحمه الله.

وعنصر آخر من عناصر التفوق في منهج البحث ، يتمثل في الإحالة التاريخية المتكررة بوضوح ، بل إن الفصلين العاشر والحادي عشر يُعدّان بالكامل دراسة تاريخية عن الفقر والفقراء وهذه الإحالة إلى جزئيات في التاريخ تجعل منهج الدلجي رحمه الله هو أسلوب المنهج الاستقرائي.

وإلى جانب هذا المنهج الاستقرائي، فإننا نلمح من الفصول التسعة الأولى من الكتاب توجهاً واضحاً للمنهج الاستنباطي. وبهذا فإن الدلجي رحمه الله استخدم المنهج الاستقرائي والاستنباطي، وهو بذلك جعل كتابته تحمل تفوقاً في منهج البحث.

سادساً : **التوصيات** : ختم الدلجي رحمه الله كتابه بتوصيات كتبها تحت عنوان : وصايا يُستضاء بها في ظلمات الفلاكة، كتبها مركزة محددة مختصرة، واستغرقت أربع صفحات (١٤٥-١٤٨)..

سابعاً : **إثبات الفرضية** : إن إثبات النتائج السابقة هو إثبات لفرضية هذا البحث وهي أن المفكرين المسلمين كانت لهم مساهمة جادة ومهمة في الفكر الاقتصادي، بجانب مساهمتهم في الفقه، كما يثبت أيضاً الطبيعة الخاصة للفكر الاقتصادي للدلجي رحمه الله عن مشكلة الفقر وقضية الفقراء.



ثبت بأهم المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم وعلومه.

٢- السُنة النبوية وشروحها.

٣- مقدمة ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون.

٤- التلوث في العمل والمدرسة - جنيفر ميك.

٥- الاقتصاد للجميع - ليونارد سلك.

٦- النوافذ الاقتصادية - زيد الرماني.

٧- مستقبلنا المشترك - تقرير اللجنة العالمية للبيئة والتنمية.

٨- كيف نختار مستقبلنا - آن تايلور.

٩- مستقبل البيئة - أوروبودان.

١٠- اللغة الاقتصادية المعاصرة - زيد الرماني.

١١- مقاصد الشريعة الإسلامية - زيد الرماني.

١٢- أدب الدنيا والدين - أبو الحسن الماوردي.

١٣- الذريعة إلى مكارم الشريعة - الراغب الأصفهاني.

١٤- الأربعون الاقتصادية - زيد الرماني.

١٥- الآداب الشرعية والمنح المرعية - ابن مفلح المقدسي.
١٦- الكسب - محمد بن الحسن الشيباني.
١٧- نحو الرشد الاقتصادي - عبد الغني سعيد.
١٨- الواقع الاستهلاكي للعالم الإسلامي - زيد الرماني.
١٩- الطعام والشراب بين الاعتدال والإسراف - محي الدين مستو.
٢٠- الرؤية الإسلامية لسلوك المستهلك - زيد الرماني.
٢١- الجوع - ابن أبي الدنيا.
٢٢- الفلاكة والمفلوكون - أحمد الدلجي.
٢٣- رواد الاقتصاد العرب - السيد محمد عاشور.
٢٤- تراث المسلمين العلمي في الاقتصاد - رفعت العوضي.
٢٥- الإشارة إلى محاسن التجارة - أبو جعفر الدمشقي.
٢٦- عالم إسلامي بلا فقر - رفعت العوضي.
٢٧- الفكر الاقتصادي عند الدلجي - حمد الجنيدل.
٢٨- خصائص النظام الاقتصادي في الإسلام - زيد الرماني.
٢٩- تاريخ الأفكار والوقائع الاقتصادية - تيسير الردادي.
٣٠- الاقتصاد الإسلامي أمل البشرية - زيد الرماني.

الفهـــرس

للقارئ رأيه

● يقول أبو منصور الثعالبي في مقدمة كتابه "يتيمة الدهر": (وحين أعرته على الأيام بصري، وأعودت فيه نظري، تبينّت مصداق ما قرأته في بعض الكتب: إن أول ما يبدو من ضعف ابن آدم أنه لا يكتب كتاباً فيبيت عنده ليلة إلا أحب في غدها أن يزيد فيه أو ينقص منه. هذا في ليلة واحدة، فكيف في سنين عدة..).

● ويقول الخطيب البغدادي: (مَنْ صنّف فقد جعل عقله على طبق يعرضه على الناس...).

● لهذا كله، يأمل الباحث تزويده بالملحوظات والآراء ليستفيد منها في بحوثه المستقبلية.

د زيد بن محمد الرماني

ص.ب : ٣٣٦٦٢ الرياض ١١٤٥٨

المملكة العربية السعودية

وكلاء التوزيع

في كافة أنحاء المملكة

مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان

ص.ب ١٤٠٥ الرياض ١١٤٣١

هاتف ٤٠٢٢٥٦٤ فاكس ٤٠٢٣٠٧٦

في قطر

مكتبة ابن القيم ت: ٤٨٦٣٥٣٣ / ٤٨٧٣٥٣٣

في اليمن

دار القدس هاتف: ٢٠٦٤٦٧

في البحرين

مؤسسة الأيام للصحافة ت: ٧٢٥١١١ (المنامة)

في لبنان

مؤسسة الريان ت ٠١/٧٠٥٩٢٠ – ف: ٠١/٦٥٥٣٨٣ – ج٠٠٩٦١٣٢٠٧٤٨٨

البريد الإلكتروني: ALRaYAN@cyberia.net.lb

في مصر

مكتب دار طويق ـ القاهرة ت: ٤٥٩٤٦٧٩ محمول: ٠١٢٢٩٦٤٨٣٦

في السودان

مكتب دار طويق ـ الخرطوم ـ السوق العربي، ت: ٧٩٠١٣٤

في الكويت لدى المكتبات التالية

الإمام الذهبي ت: ٢٦٥٧٨٠٦ دار طيبة ت: ٩٦٣٥٥٣٢

شركة المجموعة الكويتية ٢٤٠٥٣٢١ المنار الإسلامية ت: ٢٦١٥٠٤٥

في الإمارات لدى المكتبات التالية

دبي للتوزيع ت: ٢١١٩٤٩ المروج للإنتاج الفني ت: ٣٣٣٩٩٩٨

مركز مكة للكتاب والشريط الإسلامي (الشارقة) ت: ٥٠٦٣٢٢٨٨٢